جرائم أمريكا والغرب

٣

جرائم التعذيب في العراق

انحطاط حضارة .... والمقاومة هي الحل

◆◆◆

obeikan.com

obeikan.com

الجريمة النكراء

يعجز القلم على نقل الإحساس الداخلي لأي عربي أو مسلم أو حتى أي إنسان محترم تجاه ما قامت به سلطات الاحتلال الأمريكي ـ البريطاني تجاه شعب العراق، بل قل تبكي المآذن والقباب والمحاريب على ما حدث ويحدث، وإذا كان تراثنا الإسلامي العظيم يقول: إن حرمة الإنسان أعز على الله من الكعبة؛ فإن هذا يوضح إلى أي مدى كان عمق المهانة والذل الذي شعرنا به جميعاً تجاه ما حدث للعراقيين. في معسكرات الاعتقال. فالصور التي نشرتها صحيفة (الديلي يدور) البريطانية والتي تم نقلها علي نطاق واسع في صفحات الإنترنت وفي قنوات التليفزيون الفضائية تعبر في حقيقتها عن حقيقة التوحش الأمريكي والغربي، ومدى المهانة والضعف اللذين نعاني منهما، ويجب هنا أن نلفت النظر إلى أن تلك الممارسات كانت معروفة قبل أن تنشرها صحيفة الديلي يدور ، وقد سجلتها اعترافات بعض الأسرى المفرج عنهم، أو ما سجلته تقارير لجان حقوق الإنسان، ولكن السؤال هو: لماذا نشرت تلك الصحيفة المذكورة هذه الصور؟ أو لماذا سمح لها بذلك؟ هل هو بقايا الضمير الغربي؟. ربما، لكن الأكثر أهمية هو أن الدوائر الاستخبارية أرادت أن تدرس رد الفعل العربي والإسلامي والعالمي على جريمة بمثل هذه الخسة والوحشية، فإذا كان رد الفعل ضعيفاً أو محتملاً بالنسبة لها – وهو ما حدث – فإن ذلك يجعلها تجهز للمرحلة الثانية أو التالية للعدوان ... فهل يكون ذلك باتجاه هدم الأقصى، أو الكعبة أو شيء قريب من هذا؟! – محتمل جدا.

الجرائم المنشورة ناهيك طبعاً عن غير المنشورة ، وهي بالتأكيد أكبر وأسوأ، تدور حول تبول جندي أمريكي على أحد الأسرى العراقيين المقيدين في الأغلال، وهو ما

يبين أن الأمريكيين ينظرون لنا على أننا دون البشر، بل دون الحيوانات أصلاً، وهي النظرة التي تبرر لهم ما يفعلونه أو ما سوف يفعلونه بنا، وتمهد لعمليات الإبادة والاستركان المتوقعة لنا.

وكذا تعذيب الأسرى بوضع سجائر مشتعلة في أجزاء حساسة من أجسادهم، أو تعذيبهم بالكهرباء في أماكن حساسة من أجسامهم أيضاً، أو إجبارهم على ممارسة الشذوذ الجنسي، أو تمتع المجندين والمجندات الأمريكان بحركات شاذة يمارسونها مع الأسرى، أو يتفرجون على ممارستها، والجدير بالذكر هنا: أن الجنود البريطانيين فعلوا الشيء نفسه، وهو ما يؤكد أن الانحطاط الأخلاقي ليس مقصورًا على الأمريكيين فقط، بل هو سلوك وسمة غربية. وكذا النظرة الرديئة لنا كبشر هي تعبير عن نمط حضاري غربي كامل وليس أمريكيا فقط، وفي النهاية .. فإن أمريكا هي آخر صور الانحطاط الحضاري الغربي، وهو ما يعني أننا أمام تحدٍ غير مسبوق، فإن المقاومة حتى ولو كانت نتيجتها الموت، فإنه أيضا الموت مع العار، ولا ننسى في هذا الصدد حالات الاغتصاب التي تعرضت لها العراقيات وهو ما تم نشره قبل ذلك وشكك فيه البعض، ولعل ما يحدث في العراق وقبلها في فسطين يؤكد حقيقة انحطاط الغرب بكل مدارسه وجنوده، وليس الجيش الأمريكي فقط، بل حزب العمال« البريطاني» وقبله الليكود والعمل في إسرائيل وهلم جرا.

لا يمكننا بالطبع أن نفهم الحديث المنافق عن أن ذلك سلوك فردي لمجموعة من الجنود، فإحداهن كانت برتبة جنرال أمريكي، أي أن السلوك يعبر عن خلفية فكرية وثقافية معينة تطول القاعدة العريضة.

هناك شذوذ على القاعدة واستنفارات طبعاً تمثل الضمير أو بقايا الضمير الغربي. ولكننا عادة نستنتج النتائج والدلالات من القاعدة الأوسع، والمحصلة المجرى

لرئيسي للقاعدة، وطوال فترات الاستعمار الغربي لبلادنا حدثت انتهاكات بشعة مارستها حكومات جمهورية وملكية، يمينية ويسارية ... إلخ ... ويجب عدم قطع الصلة الإحصائية والدلالية بين ما حدث في العراق، وما كان يحدث في البلاد المستعمرة من الجزائر إلى مصر إلى ليبيا إلى فلسطين إلى سوريا ...إلخ.

ومما يدعو إلى الاستفزاز أن أحد عملاء الاحتلال الأمريكي في العراق قال تعليقاً على ما حدث في معسكرات الاعتقال على يد القوات الأمريكية والبريطانية: إن ذلك كان يحدث أيضاً في سجون صدام حسين، وهب ذلك صحيحاً، فهل الخطأ يبرر الخطأ، وإذا كان صدام حسين قد تعرض للمحاكمة ونال جزاءه - حسب وجهة نظرهم - فهل نتوقع محاكمة كل من جورج بوش وتوني بلير ورونالد رامسفيلد بتهمة مجرمي الحرب، أشك بالطبع، وحتى لو تم إعدام هؤلاء فإن ذلك لن يغسل الذل والعار الذي لحق بنا، والذي لا حل له سوى المقاومة والتحرير ومواجهة التحدي الغربي بكامله، فإما أن نموت واقفين وإما النصر، وليس العار والانكسار والذل بحثاً عن حياة مشكوك في الحصول عليها أصلاً!!.

وبمناسبة الحديث عن أن ذلك كان يحدث في سجون صدام فإن المقاومة تكمن في أن الدوائر الأمريكية والبريطانية ومن على شاكلتهم من عرب أمريكا، كانوا قد برروا العدوان على العراق بأسلحة الدمار الشامل العراقية، وثبت أن هذه أكبر كذبة أمريكية وبريطانية معاصرة، فلما سقطت تلك الكذبة، قالوا إننا جئنا لإنقاذ العراقيين من التعذيب والقهر والديكتاتوري، فإذا هم أنفسهم يمارسون أبشع أنواع التعذيب والقهر والديكتاتورية، بل وأكثرها نذالة وانحطاطا، فماذا بقي لهم لكي يتذرعوا به؟ أليس هذا كافياً للذين تورطوا في التعاون مع الأمريكان خاصة في مجلس الحكم أن يراجعوا أنفسهم، ما معنى استمرار حزب الدعوة والمجلس الأعلى

للثورة الإسلامية في العراق والإخوان المسلمين بل وكل القوى السياسية المشاركة في الحكم؟ ثم ما معنى مراهنة آية الله السيستاني، وقطاع كبير معه على مسألة الانتخابات تحت أسنة الاحتلال الأمريكي؟! أليس هذا نوعا من الانسحاق والاستذلال بلا حدود، لماذا لا يصطف الجميع في خندق المقاومة العراقية الباسلة ... لو كان هناك نخوة أو دين أو عروبة أو وطنية فلا طريق إلا المقاومة، والمقاومة فقط.

***

حديث البعض هناك، فيه قدر من المراوغة، فالحقيقة أن كل تاريخ أمريكا، والمجرى الرئيسي في تاريخ الحضارة الغربية يقود إلى تلك الجرائم ويؤدي إليها، فهي حضارة عنصرية قامت ولا تزال على إبادة الآخر وقهره وتعذيبه ونهبه، والمسلمون حالياً هو هذا الآخر المستهدف، ولعل ما حدث ويحدث في العراق وقد أصبح معروفاً ـ بفضل الصور المتسربة ـ يؤكد على أن هناك أشياء أسوأ وأكثر حدثت في أفغانستان، وحدثت وتحدث في معسكر جوانتانامو ، ولكن الحصار الأمني والمعلوماتي حول ما يحدث هناك مازال لم يخترق، بل إن العجيب أن أمريكا استقدمت أحد خبراء التعذيب في معسكر جوانتانامو للاستفادة بخبرته في العراق، ولكن من لهؤلاء المساكين في جوانتانامو، ودمائهم وأعراضهم وما لحق بهم من تنكيل وتعذيب؟... في رقبة الحكومات العربية والإسلامية وفي رقبة العالم المتمدن!!.

■ ■ ■

أنواع أخرى من التعذيب الأمريكي في العراق

استمرارا لمسلسل العار والفضائح الأمريكية في العراق المتعلقة بانتهاك حقوق الإنسان وقتل المدنيين، وانهيار الكذبة الكبرى التي روجت لها أمريكا حول تحرير العراقيين وتخليصهم من الاستبداد، فإن الصحافة العالمية نشرت المزيد من أنواع التعذيب وأشكاله، فالتعذيب إذن لم يقتصر على الإهانة الجنسية للمعتقلين، وجرهم بسلاسل كالكلاب أو ضربهم وحرمانهم من النوم، أو تعذيبهم بالكهرباء أو غيرها من الأساليب التي تم فضحها، بل كذلك تم الكشف عن إدخال الكلاب الأمريكية المدربة على السجناء وهم عراة والتهام أعضاء المعتقلين التناسلية مما أدي إلى وفاة ٣٠٠ سجين، وصحيفة« الواشنطن بوست» نشرت مؤخراً ملفا حول حيازتها لمئات من الصور والأفلام القصيرة والشهادات المكتوبة – الجديدة – التي توثق عمليات إهانة وإذلال المعتقلين العراقيين في سجن أبو غريب وغيره من السجون، وكذلك حصول الصحيفة على ٥٦ صفحة من الشهادات التي أدلى بها ١٣ معتقلاً أمام لجان التحقيق التي شكلها الجيش الأمريكي منذ تفجر الفضيحة.

قالت الصحيفة: إن الأنواع والأساليب الجديدة للتعذيب التي مارسها الأمريكيون في العراق كان منها: إجبار المعتقلين على أكل لحم الخنزير، وتناول المشروبات الكحولية« الخمور» في شهر رمضان بما يتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي وذلك لإذلالهم، ومنها تعذيب المعتقلين لإجبارهم على سب الدين الإسلامي، وأن أحد الجنود سأل أحد العراقيين المعتقلين إن كان يؤمن بشيء؟

فأجابه بأنه يؤمن بالله، فرد عليه الجندي« لكنني أؤمن بالتعذيب وسأعذبك»

وقام بضربه على رجله المكسورة وطلب منه أن يسب دينه الإسلامي، وأن الجندي ظل يضرب المعتقل على ساقه المكسورة نفسها؛ وطلب منه أن يسب دينه الإسلامي، ويشكر المسيح لأنه حيّ، وأن المعتقل العراقي اضطر إلى فعل ذلك تحت وطأة الألم الشديد. ومن الأساليب الجديدة أيضاً ـ وفقاً لما جاء بالصحيفة ذاتها ـ: إجبار المعتقلين على وضع موزة في مؤخرتهم، وتناول الطعام من المراحيض! وبديهي أن تلك الوسائل التي كشفت عنها الصحيفة مؤخراً، ومن قبلها الوسائل التي تم فضحها قبل ذلك ليست بهدف الحصول على معلومات ـ وهذا غير مبرر أيضاً – ولكنها وسيلة لإهانة الدين وإذلال أفراده، وتكشف بوضوح الانحطاط الحضاري الأمريكي، والتعصب الصليبي، ونظرتهم لنا على أننا لا نرقى إلى مستوى البشر بأي حال من الأحوال!!

■ ■ ■

مشروع المقاومة

مع كثرة الحديث عن مشروعات الإصلاح، وكثرة الأطروحات التي تناقش حالة التخلف والانحطاط العربي والإسلامي، فإن من الضروري علمياً وموضوعياً وشرعياً تحديد نقطة الانطلاق الصحيحة، ومن ثم البرنامج الملائم للإقلاع من تلك الحالة التي تعاني منها أمتنا.

إذا كان من الضروري - بداية - وضع تصور صحيح للإقلاع والإصلاح؛ فلا بد أن نحدد طبيعة الجماعة البشرية التي نحن بصدد تحديد أمراضها، ومن ثم وضع الوصفة الصحيحة لعلاجها، وكذا طبيعة التحدي والأمراض التي تواجهها تلك الجماعة البشرية، أي الانطلاق من نقطة مبدئية وهي: أننا لا نتعامل مع جماعة بشرية مصمتة، ليس لها سمات ولا خصائص، وأيضا لا نتعامل مع مجموعة أحجار أو أشياء مادية تخضع فقط لقانون وسنن الفيزياء والكيمياء ... إلخ.

ونظرا لكل ما تقدم ، فعلينا في البداية تحديد من هذه الجماعة البشرية التي نحن بصددها؟ وبدون الدخول في تفصيلات كثيرة، فنحن أمام جماعة بشرية – العالم العربي والإسلامي – لها تاريخ وحضارة وثقافة عميقة جداً. وبصرف النظر عن إيجابية أو سلبية تلك السمات الثقافية والحضارية لتلك الجماعة – فإن هذه الجماعة تتأثر بالضرورة بتلك السمات الثقافية والحضارية، ومن ثم فإن تجاهلها يؤدي مباشرة إلى الفشل، بل تكريس الحالة التي نريد علاجها، هذه الأمة إذن أمة إسلامية شئنا أم أبينا ، وبالتالي ، فإن المكون الرئيسي والأساسي لوجدان وثقافة هذه الأمة: هو الإسلام كدين وحضارة وثقافة بالنسبة للمسلمين«الأغلبية الساحقة» وكثقافة وحضارة بالنسبة لغير المسلمين داخل تلك الأمة، وهكذا فإن شرط النجاح الأول

لأي مشروع هو إسلاميته، ونحن في الحقيقة أمام أمة هي الأعمق ثقافياً وحضارياً – بلا استثناء – بالنسبة لكل الجماعات البشرية« ١٤ قرناً على الأقل، واتساع جغرافي وامتداد زماني ومكاني، وتأثير واضح للإسلام لا تخطئه عين أي مراقب» وهكذا فإن وهم تغييب الإسلام والحضارة والثقافة الإسلامية ـ بوعي أو بدون وعي، كرها أو رغبة ـ هو قفزة فاشلة في المجهول والفراغ، ولن تحدث مطلقاً مهما فعلنا أو فعل غيرنا، إنها محاولة محكوم عليها بالفشل، ونتيجتها الحتمية ضياع الوقت والجهد، ومسخ ذلك الكيان جزئياً؛ ومن ثم تعطيله عن التصدي الصحيح والكفء لتحديد الأمراض، وهذا ـ بالتحديد ـ هو السبب الأساسي لفشل كل مشروعات النهضة على الأساس غير الإسلامي« العلماني الليبرالي، العلماني القومي، العلماني الاشتراكي بكل درجاته» والنتيجة هي ما نشاهده الآن من نتائج لتلك المحاولات التي استقطعت من عمرنا وجهدنا الكثير بلا طائل، بل نتيجة عكس المطلوب تماماً. الإسلامية إذن هي الشرط الأَوَّلِيّ لأي مشروع للإصلاح، ولكن العنوان لا يكفي فلا بد من تحديد ما تحت العنوان وما بعد العنوان، إذا قلنا إن هذه الأمة غير قابلة للذوبان الحضاري؛ لأنها الأعمق حضارياً وثقافياً، فإن هذا يقود إلى الإيمان باستحالة هزيمتها هزيمة عسكرية وسياسية نهائية، وإذا بدأنا من تحديد أسباب التراجع .

قلنا: إن المنحنى الإسلامي صعد منذ البعثة المحمدية ثم ساد العالم، ثم ثبت هذا المنحنى، ثم نزل وأننا الآن في حالة نزول حضاري، هزيمة تكنولوجية واضحة يجب الاعتراف بها أولاً، ثم العمل على تجاوزها ثانياً، وإذا بحثنا عن سبب نزول هذا المنحنى، وقبل ذلك سبب صعوده؛ لكان من الممكن تلخيص المسألة في كلمة واحدة، هي: كلمة« الجهاد»، فطالما قامت هذه الأمة بالجهاد – كواجب شرعي

وفعل حضاري لإنقاذ المستضعفين في العالم – كلما صعد المنحنى الحضاري لأمتنا، وكلما تخلينا عن هذا الواجب وأبطلنا هذه الفريضة واكتفينا بالدفاع توقف صعود المنحنى، ثم ثبت، ثم نزل، ومن ثم فإن الصعود مرتبط باستعادة هذا الفعل(الجهاد)، وفي الحقيقة أن كثيراً من الأطروحات – بعضها إسلامي طبعاً – حين تتجاهل هذا البعد، وتتحدث مثلاً عن التنمية الاقتصادية، الإصلاح السياسي – التربية ..... إلخ فإنها تكرس التخلف، لن تحقق الوحدة مثلاً، ولا الإصلاح لاقتصادي، والإصلاح السياسي إلا إذا جاهدنا ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا] وهكذا فإن الجهاد هو كلمة السر الصحيحة والوحيدة، «الجهاد» هو شرط التقدم الاقتصادي والاجتماعي وشرط التنمية الحقيقية، وشرط كل شيء صحيح وجميل، فإذا أردنا أن نحقق زراعة أو صناعة أو تعليما أو تربية أو حتى تفوقا فنيا وأدبيا، فإن الجهاد هو الشرط الأول. وهذا هوالمعنى الصحيح للآية المذكورة سابقاً، وللحديث الشريف، كذلك يجب بالطبع إدراك بُعْد الهزيمة التكنولوجية، والاعتراف بها، ويجب أن ندرك أن علينا في البداية أن نقلل سرعة نزول المنحنى الحضاري لأمتنا، وأن نوقف هذا النزول تماماً، ثم نُحْدِث انقلاباً في المنحنى، ثم نصعد من جديد إن شاء الله، وبدون هذه المراحل فإننا نقفز في الهواء ، وهذا لعمري كان خطأ الحركات السياسية الإصلاحية عموماً والإسلامية منها خصوصاً حتى الآن ، يجب تقديم اجتهاد فكري وحركي وفقهي يلائم هذا الظرف، ويحقق أقصى قدر من فريضة الجهاد.

سندخل مباشرة في بعض الأطروحات المراوغة، التي تقول إحداها مثلاً: إننا أمة متخلفة ومهزومة – وهذا صحيح – وأن المواجهة ليست حلاً« وهذا غير صحيح، ومن ثم فعلينا اتباع الأسلوب الألماني أو اليابانى في الإصلاح، أي ترك موضوع

المواجهة والجهاد نهائياً والتفرغ للبناء والإنتاج في محاولة لسد الفجوة التكنولوجية، ومن ثم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وهذا طرح خاطئ لعدة أسباب: فالمعركة ضد الألمان واليابانيين لم تكن معركة حضارية أو ثقافية بل عسكرية وسياسية، أما نحن فالمعركة ضدنا بالإضافة إلى كونها عسكرية وسياسية واقتصادية، فإنها أيضاً حضارية وثقافية، نحن لسنا فقط إزاء مشروع استعماري اقتصادي وسياسي، بل إزاء مشروع حضاري يستهدف القضاء على أمتنا، وهناك وجدان صليبي يحرك الأعداء ضدنا، والمواجهة مع الغرب الصليبي لم تنقطع قط في الزمان ولا المكان بدءاً من حياة الرسول ﷺ حتى اليوم مروراً بالمواجهة في الأندلس والمغرب العربي» حرب الألف عام كما يطلق عليها المؤرخون المغاربة مروراً بحروب الفرنجة على المشرق العربي الإسلامي ١٠٩٥ – ١٢٩٥ م وكذا مروراً بالمواجهات التي خاضتها الدولة العثمانية، ثم الاستعمار والصهيونية حتى احتلال أفغانستان والعراق .. فالمسألة هنا أننا أمام عدو لن يقبل غير الاجتثاث لأمتنا،ولن يتركنا نبني و نعمر، فهو لن يقبل لنا النهضة على الأساس الإسلامي أو حتى العلماني وعلى أي أساس، ونحن أمة وسط ثقافياً وجغرافياً ولسنا جزراً منعزلة، وبالتالي فالقياس الألماني والياباني قياس مخادع وخاطئ، بالإضافة إلى أن أمريكا والغرب كانت لهما مصلحة في تقدم ألمانيا الغربية في إطار الصراع مع المنظومة الاشتراكية، وكذا في تقدم اليابان حتى لا ينفرد الاتحاد السوفييتي أو الصين بالتمدد في آسيا، وموضوع القياس الياباني والألماني خطأ مبدئي بالنظر لظروف وطبيعة الصراع مع الغرب، وهو أكثر خطأ بعد سقوط الاتحاد السوفيتي السابق، والمنظومة الاشتراكية؛ لأنه ليس هناك استقطاب يسمح بهامش من المناورة يمكن أن نفلت بها من موانع الغرب وعراقيله على نهضتنا، وهكذا ، فإن القياس الألماني والياباني يحتم المواجهة والجهاد والمقاومة.

من الأطروحات الأخرى: المراوغة، إننا أمة لا قيمة لها وأن الدخل القومي الأمريكي مثلاً ١٣ تريليون دولار، أما الدخل العربي والإسلامي السنوي فهو قليل جداً – العربي ٧١٧ مليون دولار، أي أصغر من رأسمال شركة ميكروسوفت مثلاً، أو نوكيا للهواتف المحمولة، أو دولة واحدة مثل أسبانيا، وهذا صحيح، ومن ثم فإن الغرب لا يضعنا في اعتباره وليس طامعاً فينا، أو لا نشكل له أي نوع من التهديد، ولعل حجة هؤلاء هي نفسها تكشف منطقهم، فمادمنا بلا قيمة ولا نشكل خطراً، فلماذا تم زرع إسرائيل؟ ولماذا تم احتلال أفغانستان ثم العراق ...؟ هل لتدفق البترول مثلاً؟ وهذا البترول مهم طبعاً، ولكن تدفقه كان مضموناً بدون مخاطر هذا الاحتلال على الأمريكان وحلفائهم، بل إن أحد الزعماء العرب قال ذات يوم مستغرباً: إنهم يأخذون البترول، وحتى صدام حسين شخصياً كان مستعداً لأن يضخ لهم البترول، إذن فالمسألة لها بعدها الحضاري والثقافي والتاريخي بالإضافة إلى بعدها الاقتصادي والسياسي، أما مسألة أننا لا نشكل خطراً عليهم، فهذا كلام جزئي، نعم ربما لا نشكل خطرا حقيقياً أو كبيرًا الآن، ولكن هناك ما يسمي بالقوة الكامنة، والمنظومة الإسلامية الثقافية خطر شديد على المنظومة الغربية الرأسمالية؛ لأنها تشكل البديل الأيديولوجي لكل مستضعفي العالم للثورة على الرأسمالية بعد فشل الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي، وبديهي أن الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي، كانا لا بد أن يفشلا أمام الرأسمالية؛ لأنه من الناحية العلمية والموضوعية أن الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي قد خرجا من الأرضية الحضارية ذاتها التي أفرزت الرأسمالية، ومن الطبيعي أن هذا سبب جوهري وبنيوي للفشل، أما الإسلام فهو منظومة ثقافية مختلفة أولاً، وليست نابعة من المنظومة الحضارية الغربية وهي ذات تراث ونصوص منحازة للفقراء، ثانياً ، بالتالي ، قادرة على تقديم التبرير النظري للثورة على الرأسمالية، وهي ذات خطاب، عالمي ثالثاً، وبالتالي ، فهي

يمكن أن تصلح كأيديولوجية أو جذر ثقافي للبشر المستضعفين والمتضررين من الرأسمالية« وهم أكثرية العالم» سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين، ثم إن الخطاب الإسلامي خطاب غير عنصري، أضف إلى ذلك أن الرقعة الجغرافية المتوسطة وذات الاتساع الكبير التي يشغلها العالم الإسلامي. وكثافته السكانية الكبيرة والواعدة، ثم ثقافة القتال والجهاد، والاعتماد على مدد الله يمكن أن تشكل مصدراً لا ينضب للمجاهدين والمناضلين، وهكذا فإن خوف الغرب وأمريكا من الإسلام والمسلمين له أسبابه القوية والخطيرة أيضاً، وحديث المفكرين والسياسيين الغربيين عن الخطر الأخضر ليس وهما أو خداعاً، بل إدراك مبكر وتقليدي لما يمكن أن يمثله الإسلام والمسلمون إذا استمرت ثقافة المواجهة والمقاومة وتم استعادة فعل «الجهاد» الجميل.

***

لماذا نقول مشروع المقاومة، ولا نقول مثلاً مشروع الإصلاح السياسي أو الاقتصادي أو التربية أو غيرها؟! ذلك كما قلنا لأننا أمة لن تنهض ولن تتقدم إلا بالجهاد، وذلك لأننا أمة مستهدفة، والسيف فوق رؤوسنا، فهل نخدع أنفسنا مثلاً، وقد بان الأمر الآن، فأمريكا وبريطانيا والحلفاء جاءوا بجيوشهم، والانطباق الكامل بين إسرائيل وأمريكا أصبح واضحاً للعيان لا تخطئه عين، خاصة بعد ما يسمي« بوعد بوش» الصادر مع شارون في مؤتمر صحفي ١٤/ ٤/ ٢٠٠٣ وهو مفهوم من قبل ولكن ذلك لمن يريد حجة دافعة بدون جهد!!.

وكذلك لأن الله تعالي وضع لنا الحل الصحيح في القرآن الكريم:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ

فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢]

وهاتان الآيتان تنطبقان على حالتنا الراهنة تماماً، حيث إنه لم يحدث تحالف – فضلاً عن موالاة – بين اليهود والنصارى إلا في السنوات الأخيرة – بل كان العداء بين الطرفين هو سيد الموقف دائماً لدرجة ظهور ما يسمى بالمسألة اليهودية أو العداء للسامية في الفكر الغربي واليهودي على حد سواء، المهم أن هناك الآن – موالاة – والموالاة أعلى من التحالف بين الغرب وإسرائيل ، وهناك احتلال أمريكي لمناطق وبلاد عربية وإسلامية ومنطق الذين لا يريدون المقاومة أو القتال أو الجهاد أو الاستشهاد يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، أي نخاف منهم لأنهم أقوى منا بمراحل – نعم هذا صحيح، ولكن لنا أدواتنا ووسائلنا لخوض المواجهة، بالمقاومة الشعبية التي أثبتت نجاحها في فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان. وبسلاح الاستشهاد الذي لم يجدوا له علاجاً – ولن يجدوا إن شاء الله – حتى الآن ، بصرف النظر عن النتائج فإن الله تعالى طلب منا ذلك، وفضح منطق المسارعين فيهم، وبشرنا بأن «الفتح» أو «أمر من عنده» سوف يأتينا، ونحن بالتالي نطرح المقاومة ومشروع المقاومة والمواجهة كحل صحيح وكفريضة شرعية، وكتوجيه قرآني، وكذلك من الناحية العلمية والموضوعية فهو سلاح وطريقة وأسلوب أثبت نجاحه، فالمقاومة العراقية أثبتت حتى الآن أنه على الرغم من كل الظروف الصعبة وغير المواتية نجحت في تعطيل المشروع الأمريكي، وفي سبيلها لإنهائه إن شاء الله، والأمر ذاته بالنسبة لمشروع المقاومة في فلسطين الذي جاء أيضاً في ظروف غير مواتية ومع ذلك هزّ الوجود الإسرائيلي هزا، وألقى بظلال من الشك حول المشروع الصهيوني ذاته كما اعترف بذلك قادة العدو وكبار مفكريه وكذلك بالنسبة للمقاومة في لبنان.

مشروع المقاومة إذن أثبت أنه يمتلك مقومات النجاح، وإذا أدركنا أننا في حالة هزيمة تكنولوجية، وأنه من المستحيل عملياً مواجهة آلة الحرب العسكرية والسياسية والاقتصادية الأمريكية والصهيونية بالجيوش أو الدول أو المؤسسات الرسمية« وكل التجارب دلت على ذلك» ، فإن التجارب ذاتها دلت على أن المقاومة الشعبية استطاعت أن تبرز وتأخذ مكانها، سوف تحقق أولاً نوعا من التصدي والصمود يمنع وصول المنحنى الحضاري الإسلامي إلى نقطة السقوط النهائية، والمقاومة سوف تُزِيدُ وعي الشعوب بالتحديات التي تحيط بها، وتوقظ هذه الشعوب وتعالج الأجزاء المريضة في الجسد العربي والإسلامي، وبالتالي يزداد هذا الجسد حيوية، ولا شك أن ذلك سوف يُزِيدُ قدرة هذه الشعوب على انتزاع حقوقها السياسية، ومن هنا فإن مشروع المقاومة هو المقدمة الأولى والصحيحة والجوهرية للإصلاح السياسي، وعلى النمط نفسه فهو المقدمة الأولى والصحيحة للتقدم الاقتصادي وإشاعة روح الوحدة والتكافل والحيوية والإيجابية، بل سوف تفجر طاقة الابتكار العلمي والتكنولوجي أيضاً، وهكذا فإن مشروع المقاومة وإضاعة ثقافة المقاومة هو الأسلوب الصحيح شرعياً وواقعياً، وفي أسوأ الحالات فإن التخلي عن الجهاد والمقاومة يعني الإبادة والقتل والتبديد والنهاية الحضارية وتحولنا إلى عبيد أو قتل الجزء الأكبر منا، وتحويل الباقي إلى عبيد، أما المقاومة فهي إما نصرًا وإما شهادة، وحتى لو كانت النتيجة هي الهزيمة فإن خسائر الهزيمة لن تكون أسوأ من حالة الانبطاح، وعلى الأقل هناك الكرامة، وهناك التجربة التي يمكن تكرارها مع الأجيال القادمة، للمحافظة على الجذوة مشتعلة تحت الرماد.

***

ولن نكون مفرطين في الوهم أو التفاؤل حين نقول: إن مشروع المقاومة لن يحقق

فنط العزة والكرامة لنا، بل سيكون بداية لتحرير العالم كله من الهيمنة والظلم الأمريكي الصهيوني، وسوف يرفع قيمة أطروحاتنا الثقافية عالمياً، بل يمكن أن يتحول الإسلام إلى أيديولوجية لكل المستضعفين والمناهضين للرأسمالية والعولمة، وحتى بمنطق الدعوة المباشر فإن المواجهة والمقاومة ستكون طريقاً صحيحاً لدخول الناس في دين الله أفواجاً.

■ ■ ■

obeikan.com

انحطاط حضارة أم سلوك فردي

يجب ألا تنسينا بشاعة التعذيب في السجون العراقية عموماً وسجن أبو غريب خصوصاً، أن الجريمة الأصلية هي جريمة الاحتلال الأمريكي للعراق، وأن من الواجب مقاومة هذا الاحتلال بكل الطرق، سواء وقع هذا التعذيب أم لم يقع، وسواء تمت محاكمة الذين قاموا به وعقابهم أم لم يتم، فجريمة الاحتلال هي أم الجرائم، بل إن نشر صور التعذيب وربما محاكمة مرتكبيه هي طريقة أو وسيلة لإلهائنا عن جريمة الاحتلال، ومن ثم التركيز على النتيجة وترك السبب، وفي الحقيقة فإن الاحتلال يقود بالضرورة إلى إهدار الكرامة والقمع والنهب والتعذيب؛ لأن هذا جزء من غريزة الاحتلال ، والطبع يغلب التطبع، وكذا فإن القمع والعنف والتعذيب والسادية هي سمات أساسية من سمات الحضارة الغربية، ويجب ألا ننسى هنا أن الحضارة الغربية بكل إفرازاتها هي التي أفرزت الفاشية والنازية والرأسمالية والشيوعية والديكتاتورية والعنصرية، وجرائم الحضارة الغربية عموماً والأمريكية(*) منها خصوصاً أكثر من أن تحصى وتحتاج إلى مجلدات لرصدها، وهي تشكل المجرى الرئيسي للحضارة الغربية، ولا يعني هذا أنه لا يوجد أفراد وجماعات وقوى تتمتع بالضمير داخل الغرب، ولكنها جماعات وقوى وأفراد هامشية ولا تشكل عنصراً مهمًا في اتخاذ القرار الغربي والأمريكي، وبديهي أن الرأسمالية الغربية والأمريكية والمجمع العسكري الصناعي الحاكم هناك يريد تحويل العالم كله إلى عبيد لصالح مجموعة الرأسمالية والعسكرية الحاكمة، وهو يريد

(*) راجع في هذا الصدد كتاب « المواجهة بين الإسلام والغرب» ، « وكتاب جرائم الأمريكان في هذا الزمان » للمؤلف نفسه. د. محمد مورو.

أيضاً تحويل الجمهور الأمريكي والأوروبي نفسه إلى عبيد، وبالتالي فهامش التحالف واسع بيننا وبين كل المتضررين من صعود المجمع الصناعي العسكري في الغرب وأمريكا من أبناء أوربا وأمريكا أنفسهم، ولكن مع الأخذ في الاعتبار أن المسألة بالنسبة لنا مركبة، فهي جزء من الاسترقاق والنهب والقمع الرأسمالي، وهي أيضاً تعبر عن وجدان صليبي وعنصري تجاهنا، وقد نجح المجمع الصناعي العسكري العربي في خلق وجدان معادٍ للعرب والمسلمين عن طريق آلته الإعلامية الجبارة، وأسلوب التعليم والتثقيف في الغرب الذي يحمل بصمات عنصرية وصليبية واضحة.

جريمة التعذيب في العراق ... ليست إلا تعبيرا عن حضارة منحطة، هذه احضارة الغربية وصورتها الأمريكية هي التي ارتكبت جريمة إبادة الهنود الحمر حوالي « ١٢٠ مليون هندي»، واسترقاق السود؛ فحوالي ٩٠ مليون زنجي ماتوا في الصيد أو النقل أو العمل الشاق، هذه المئات من الملايين تمت إبادتها واسترقاقها في وقت كان عدد سكان إنجلترا مثلاً ٣ ملايين، أي مائة ضعف عدد سكان إنجلترا، ولك أن تتصور فداحة الرقم.

الحضارة الغربية والوجدان العنصري والصليبي فيها هي التي نظمت المذابح في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وهي التي أنشأت إسرائيل فارتكبت بذلك جريمة تشريد شعب، واحتلال أرض، وهذه الجريمة اتفق عليها اليسار واليمين الجمهوريون والديمقراطيون، الشيوعيون والرأسماليون من مختلف أنواع الطيف السياسي والفكري في الغرب وأمريكا، وممارسات إسرائيل العنصرية والقمعية من مذابح إلى اغتيالات، إلي ضرب مدنيين إلى اقتحام قرى ومدن ومخيمات، إلى اعتقال الآلاف وتدمير الطرق والمزارع، وسرقة المياه، وتلويث الماء والهواء، وقطع الأشجار

والمرافق وغيرها، تتم علنا وتحت سمع وبصر العالم كله بما فيه أمريكا وأوروبا، بما يعني أن الديمقراطية الغربية المزعومة ديمقراطية عنصرية تتلاشى تماماً مع العرب والمسلمين، وبما يعني أنه جزء من القيمة الحضارية الغربية المنحطة والعنصرية، إنها جرائم حضارة منحطة لا تفهم إلا هذه الصفة وتنقلها وتزرعها في أبنائها الجهلة، والأمر بالطبع مرشح للمزيد، لأنها غريزة استعمارية وغريزة حضارية منحطة وعنصرية، وقد لاحظنا مثلاً أن حكومات فرنسية أبادت وقمعت وذبحت الجزائريين بلا هوادة، ووصلت أرقام الضحايا إلى ٥٠ ألف قتيل جزائري في عام ١٩٤٥ مثلاً، وتم اختراع وابتكار أشكال من التعذيب لم تعرفها البشرية قط على يد المستعمرين الفرنسيين واستخدموها ضد الجزائريين(*) وكذا ما حدث في قلعة جانجي بأفغانستان، وما يحدث في معسكر جوانتانامو الأمريكي الموجود في كوبا!! (**) وتعترف التقارير الأمريكية نفسها بأنها أعطت أوامر بتجهيز المعتقلين للاستجواب عن طريق الضغط عليهم بالإهانة الجنسية والتعرية والكهرباء والحرمان من النوم، والقيود في الأيدي والأقدام والضرب، وغيرها «اعترفت التقارير بـ ٢٠ طريقة للضغط» بل من المثير أن وزير الدفاع الأمريكي: رونالد رامسفيلد أعلن جهارا نهاراً أنه أعطى الأوامر للقوات الأمريكية في أفغانستان بقتل من يحاول الاستسلام من طالبان والقاعدة، وأنه أمر بقتل الأسرى العزل في قلعة جانجي بعد احتجازهم!!. وهكذا ، فالسلوك ليس سلوكاً فردياً، بل أوامر دولة وسلطة، وكذا فالسلوك ليس سلوك إدارة عينية صنعت من المسيح جنرالا بخمسة نجوم، بل وصنعت منه جلاداً وهو بريء من أفعالهم طبعاً – عليه السلام – بل سلوك حضارة منحطة.

(*) راجع كتاب « الجزائر تعود لمحمد » للمؤلف نفسه . د . محمد مورو

(**) راجع كتابنا « العقل الإسلامي على الطريقة الأمريكية » د. محمد مورو.

ما حدث في سجن «أبو غريب »وغيره من السجون العراقية، وما حدث من قبل في فلسطين المحتلة« ومازال» وما حدث في أفغانستان وجوانتانامو لا يمكن تفسيره إلا بأنها حضارة منحطة، ويعترف الكاتب البريطاني النزيه – روبرت فيسك بذلك قائلاً:« إن كراهيتنا للعرب والمسلمين ميراث قديم، لماذا ننـدهش من العنصرية والوحشية والقسوة تجاه العرب والمسلمين، لقد جاء الجنود البريطانيون والأمريكيون من مدن اتخذت منها الكراهية موطناً لها، فيها المسلمون العرب إرهابيون وأشرار، وكل الصفات الكريهة تلصق بهم، ويضيف روبرت فيسك:« هؤلاء الجنود موصوفون لهذه الأفلام والمسلسلات التي تنتجها هوليوود وتتسم بالعنصرية والكراهية تجاه العرب والمسلمين، وتلصق بهم كل التهم الشريرة من عنف وفسق وقذارة وكذب، وهكذا لم يكن من الصعب أن يتبول بعض البريطانيين على وجه سجين عراقي مغطى الرأس، وأن يأمر بعض الأمريكيين الساديين رجلا معصوب الرأس بالوقوف على صندوق مقيد اليدين بأسلاك كهربائية، وأن تبلغ السادية مداها في تلك الصور التي تظهر جندية أمريكية وهي تصوب سلاحها صوب الأعضاء التناسلية لأحد سجناء «أبو غريب»، وكذلك صورة الجندي البريطاني وهو يقوم بعملية القذف داخل فم سجين آخر في محاولة مجنونة للتأكيد على أكاذيبنا التي روجناها بأن هذا وحده هو الأسلوب الأمثل للتعامل مع العرب والمسلمين، ويضيف روبرت فيسك:« حتى اليوم لا نزال نعرض الفيلم المقزز» آشانتي« عبر محطاتنا التليفزيونية الذي تدور أحداثه حول خطف زوجة طبيب إنجليزي من قبل تاجر رقيق عربي، وهو من نوعية الأفلام التي تصور العرب دائماً بأنهم مغتصبون وقتلة وكذابون ولصوص، وفي الحقيقة – والكلام مازال لروبرت فيسك:« فإننا نصور العرب الآن في أفلامنا مثلما صور النازيون من قبل اليهود ،نتعامل معهم على أنهم إرهابيون ولا بد أن يذلوا ويضربوا ويعذبوا، فالإسرائيليون

يلجأون اليوم لاستخدام أساليب التعذيب نفسها التي كان يستخدمها الروس في تعذيب الفلسطينيين، مثلما نتبع نحن نفس الأساليب ذاتها في تعذيب العراقيين».

وتعترف صحيفة« الوشنطن بوست» بأن الجنود الأمريكيين أجبروا المعتقلين على اللواط لتصويرهم على أنهم همج!!.

بما يحاول البعض بالطبع غسيل الممارسات الأمريكية بطرق مختلفة وهو أمر مستحيل قطعاً، والمحاولة ذات أبعاد ، منها مثلاً ، أن يقول البعض :إن ما حدث ليس جديداً على العراقيين، وإنه كان يحدث في سجون صدام حسين، وكذلك فإن التعذيب موجود بكثرة في السجون العربية!! وبديهي أن الخطأ لا يبرر الخطأ، وكل الممارسات ضد الإنسان مرفوضة حتى ولو مارسها حكام وسلطات عربية، ولكن أليست هذه السلطات والحكومات هي صنيعة أمريكا ذاتها!! وأن القهر والتعذيب وانتهاك حقوق الإنسان جاء مع التغريب والتبعية اللذين ابتلينا بهما في بلادنا العربية والإسلامية، ومن المحاولات أيضاً أن التعذيب الذي تم في العراق هو مجرد سلوك فردي، وهذه الحجة انهارت بسرعة حيث اعترف المجندون والمسئولون عن تلك السجون، بأنها كانت أوامر من القادة، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن المجندة سابرينا هارمان قالت: إنها كانت تتلقي الأوامر من ضباط المخابرات العسكرية، ومن بعض المدنيين الذين كانوا يجرون التحقيقات، وأنها كانت مكلفة بإهانة المعتقلين!! وأن أوامر القادة كانت تدور حول حرمان المعتقلين من النوم وإجبارهم على الوقوف عرايا، وتحويل حياتهم إلى جحيم وتجريدهم من ملابسهم وتكويمهم عرياً بعضهم فوق بعض وفي شهادة« للسيرجانت جفال دبفيز» قال: إن المخابرات العسكرية ومن رتب كبيرة بها قاموا بتعذيب المعتقلين بأنفسهم، وعندما سألناهم عن مدى أخلاقية ذلك كانت إجاباتهم: إن لهم قواعد خاصة، وإنه سمع شخصيا

رجال المخابرات العسكرية يأمرون الجنود الأمريكيين بالاعتداء الجنسي على المعتقلين، وإنه عندما كان يتم الاعتداء الجنسي على المعتقلين كان رجال المخابرات العسكرية يقولون للجنود الذين قاموا بذلك: لقد قمتم بعمل عظيم. وهناك عشرات الشهادات الأخرى التي تضمنها تقرير رسمي أمريكي هو تقرير« أنطونيو كاجوبا» وكلهم اعترفوا بأن التعذيب كان يتم بأوامر عليا من القادة، وأنه كان تعذيباً بلا مبرر ولا علاقة له حتى بالحصول على معلومات. وهكذا فإن الحوادث لا يمكن تفسيرها بالسلوك الفردي، بقي بالطبع أن يقول البعض: إنه سلوك إدارة عينية لا تمثل أمريكا، وإنها من أفعال رامسفيلد الأحمق ويعبر عن هؤلاء الكاتب الامريكي« توماس فريد مان» بقوله:« نحن مهددون بخسارة تتعدى الهزيمة في العراق، نحن مهددون بخسارة أمريكا كقائدة للمرجعية الأخلاقية وكمصدر للإلهام في هذا العالم، إن إدارة بوش تقودنا نحو الكارثة».

وفي الحقيقة فإن ما حدث انحطاط حضارة، وانحطاط إدارة وانحطاط قادة عسكريين، وانحطاط جنود، لا يلغي انحطاط إحداها الأخرى. وإذا حاولنا أن نفحص ونتأمل الممارسات والانتهاكات التي تمت وأصبحت معروفة بشهادة السهود، أو الصور نجد أنها دارت على نطاق واسع طالت حوالي ١٠٠ ألف معتقل على حد تقرير منظمات حقوق الإنسان، وأنها لم تكن مقصورة على سجن «أبو غريب» وحده، وأن من قام بها ليس الأمريكان فقط بل البريطانيون أيضاً، وأن التعذيب والقهر طال من هم خارج السجن، فهناك عمليات اغتصاب نساء بعد خطفهن سواء عن طريق دهم البيوت وقتل الأزواج، أو تفتيش السيارات ثم قتل الأزواج والأولاد واختطاف الزوجات« حالة سعدية نور الدين»، أو اختطاف الفتيات من الحقول بإلقاء شباك عليهن من طائرات هليوكوبتر« حالة سميرة

حسين»، وهناك اغتصاب سجينات عراقيات داخل السجون. وقد أصدرت السجينات المفرج عنهن بياناً أكدن فيه تعرض المعتقلات في سجن «أبو غريب» للاغتصاب وأن بعضهن فقدن عذريتهن، والبعض الآخر يحملن أجنة حراما في أحشائهن، وقال البيان بالحرف الواحد:« إن المعتقلات تعرضن للاعتداءات الجنسية من قبل جنود الكفرة وأعداء الله، وأنهم كانوا يستعرضون الرجولة والنخوة عليهم». من أساليب التعذيب أيضا: إدخال نساء عاريات على علماء دين، ورجال عراة أيضاً، وهذا بالطبع نوع قاس من الإذلال والإهانة، ومنها: إجبار المعتقلين على اللواط لتصويرهم على أنهم همج، سكب الماء البارد على المعتقلين وهم عراة، ضربهم بأيادي المقشات والكراسي، وضعهم في سائل كيميائي واستخدام الكلاب لترويعهم، اغتصاب المعتقلين جنسياً وإجبارهم على اتخاذ أوضاع مشينة، وضع أطواق الكلاب حول رقاب المعتقلين وجرهم بالسلاسل على الأرض، استخدام الكلاب المدربة لتخويف السجناء ولا مانع من أن تنهش لحومهم، التقاط صور الضحايا الأحياء بجوار جثث القتلى والموتى، التخويف بإطلاق الرصاص والتهديد بالإعدام، لف الرؤوس بأكياس، الضرب في أجزاء حساسة من الجسم، وضع عصا المكنسة في المؤخرة، إجبار الرجال على الاستمناء وممارسة الجنس بالفم، الوقوف بالأحذية على الأجسام العارية، تصوير السجناء والسجينات عرايا تماماً، وإجبار الرجال على الاشتراك في أوضاع جنسية شاذة وتصوير ذلك، الإصرار على ارتداء الشباب ملابس النساء وتصويرهم، التعذيب بالكهرباء.

وبتحليل تلك الممارسات نجد أن الهدف منها ليس الحصول على اعترافات بل مجرد الإهانة للإهانة؛ وهو ما يكشف عن عنصرية واضحة وسادية وشذوذ، فعندما يتبول جندي على معتقل عراقي ويشعر بالسعادة والابتسام كما جاء في الصور، فإن

ذلك يدخل مباشرة في باب التحقير والعنصرية، وعندما تقوم مجندة أمريكية بسحب عراقي بسلسلة كلاب وهي تبتسم ؛ فإن الأمر يرتبط بالإذلال والمهانة، والتلذذ بتحويل آدمي إلى حيوان، وعندما يتم تصوير ذلك وإرسال الصور إلى الأصدقاء في أمريكا وبريطانيا، فإن الأمر لا يعبر في الحقيقة إلا عن انحطاط حضارة وشذوذها وساديتها وإجرامها، وليس هناك تفسير يصلح لشرح تلك الضواهر غير هذا التفسير، أما المحاولات المقصودة أو الغبية لتفسير الظاهرة بشكل جزئي ، فهي جزء من المؤامرة على عقولنا ووجداننا، ومحاولة إبعادنا عن الاستنتاج الصحيح ، وهو أنه لا طريق هناك سوى المقاومة ضد أمريكا وإسرائيل والتحالف الشرير في كل مكان وزمان.

■ ■ ■

المقاومة والتشكيك

ترتفع من آن لآخر نغمة التشكيك في جدوى المقاومة العراقية أو الفلسطينية أو أي مقاومة، ومن الغريب أن مفردات التشكيك وأساليبه وأهدافه واحدة، بل هي نغمة تتكرر بصورة رتيبة ومملة وداعية للازدراء!!

إذا أخذنا المقاومة العراقية مثلاً، نجد أنه تم التشكيك ابتداء في إمكانية اندلاع هذه المقاومة، وكانت الأسباب تدور حول أن الشعب العراقي قد فقد قدراته وحيويته بسبب الديكتاتورية، أو أنه جزل فرحان بالغزو الأمريكي، والاحتلال الأمريكي الذي خلصه من الاستبداد، وسيفتح أمامه طريق الديمقراطية والرخاء، ولكن الذي حدث أن المقاومة العراقية اندلعت بأسرع مما يتصور أكثر المتفائلين تفاؤلاً.

وتصاعدت وأثبتت وجودها، بل حولت حياة الاحتلال وجنوده إلى جحيم، ومرة أخرى يتم اتهام المقاومة بأنها مأجورة لصدام حسين، الذي يعطيها من الأموال التي اختلسها من أموال الدولة، وحتى لو كان هذا صحيحاً – وهو غير صحيح – فالأمر لا يدعو إلى النقد، بل الفخر لأن من الأفضل إنفاق تلك الأموال على مقاومة الاحتلال، بدلاً من تركها لتنهبها سلطات الاحتلال، ثم إنه ليس هناك أفضل ولا أشرف من الإنفاق على مقاومة المحتل، ودعم نضال شعب ما، وبديهي أن حجم المقاومة ونوعية عملياتها وأساليبها، لا يمكن أن تكون إلا تعبيرا عن إرادة شعب وكرامة أمة، وليست قدرات وأموال فرد، فلما سقطت هذه الفرية بعد أن تم القبض على صدام حسين - حينها - وروج وقتها المرجفون أن المقاومة ستموت بالسكتة القلبية، فإذا بها تتصاعد كماً ونوعًا. ولما استمرت المقاومة، وسقطت

الأوهام حول طبيعة المقاومة، فكان لا بد لدوائر التشكيك أن تبحث عن أسلوب آخر ومنطق آخر وحجج جديدة. وهي أساليب وحجج اتسمت بطابع الهجوم الاستراتيجي، أي التشكيك في المقاومة وفي ترحيب الشعوب بها، وفي طريقة التغطية الإعلامية لها وفي أهدافها ومستقبلها.

فلأن جماهير العالم الإسلامي والعربي محبطة وعاجزة ومقهورة ومغلوبة على أمرها، فهي ترحب بالمقاومة وتضخم من أعمالها وتعلق الآمال عليها وهذا ليس صحيحاً تماماً، فالترحيب بالمقاومة ليس فقط من منطق الإحباط، بل من منطق التضامن العربي والإسلامي والوجدان المعادي للاستعمار، والمفعم بحب المقاومة و لاستشهاد. ووسائل الإعلام العربية في منطق المشككين هي بدورها بالغت في أعمال المقاومة ووفرت لها تغطية فوق العادة، وذلك كنوع من إرضاء الجمهور المتلقي واجتذابه والعزف على أوتار الإحباط بقوة أكثر مما تسمح به الظروف و لإمكانيات، أو الواقع ومعطياته، وأن هذه المبالغة يمكن أن تنقلب إلى العكس وتتسبب في مزيد من الإحباط إذا ما انحسرت أو تراجعت المقاومة، أو إذا عجزت عن تحقيق ما تصبو إليه من أهداف.

ومنطق المشككين هنا يستخدم الكذب والخداع وعدم الترابط وافتراض أشياء غير حقيقية، والبناء عليها وغيرها من الأساليب المراوغة، فوسائل الإعلام العربية في مجملها تقدم أقل القليل عن المقاومة، وليس المبالغة، بل إن أخبار المقاومة تفرض نفسها فرضاً على تلك الوسائل ولا يمكن بأي حال من الأحوال اتهام أمريكا وحلفائها وعملائها وأحزابها ومفكريها وكتابها وصحفييها بالعجز المالي أو المادي، لدرجة أن تحدث مبالغة عكسية مثلاً في أخبار المقاومة، واهتمام وسائل الإعلام بأخبار المقاومة وهو عمل مهني بحت، فليس هناك خبر أو موضوع يمكن أن يكون

أهم من المقاومة في تلك الظروف، أي مسألة رد الفعل العكسي إذا ما انحسرت المقاومة أو عجزت عن تحقيق أهدافها، فهو منطق المقاومة وفلسفتها تماماً، فالمقاومة أولاً وأخيراً تندلع من أجل الكرامة، وليس حولها وهم بإمكانية الانتصار السريع، والوجدان العربي والإسلامي لا يربط الجهاد والنضال بالنصر، فهو نصر أو شهادة. ولكننا مع ذلك نثق أن المقاومة يمكن أن تضع اللبنات الأولى ليس لانتصار شعب العراق فقط بل للصمود العربي والإسلامي بالكامل .

منطق المشككين يعزو الحماس الجماهيري للمقاومة بأن أعداء أمريكا في المنطقة يروجون للمقاومة، لأنها وسيلتهم لإلحاق أكبر قدر من الخسائر بالأمريكيين، وينسى هؤلاء المشككون أن الاتحاد السوفييتي قد سقط، وبالتالي فإن العداء لأمريكا في المنطقة ليس لحساب طرف ثان، بل هو بسبب الممارسات الأمريكية ضد شعوبنا ونابع من ذلك، بل أكثر من هذا فإن الموصوفين بالحماس للاتحاد السوفييتي والمنظومة الشيوعية السابقة هم الآن أكبر مروجي الخضوع لأمريكا والتحالف معها، والتبرير لها والترحيب بها، أما أعداء أمريكا فهم كل الشعب العربي الإسلامي باستثناء أصحاب المصلحة أو الحكام لا أكثر ولا أقل!!.

من وسائل التشكيك في المقاومة العراقية: الحديث باستمرار عن الموضوع الطائفي والعرقي، واستخدام أرقام قد تكون صحيحة وقد تكون مبالغ فيها. فحسب هؤلاء أن العراق يضم مجموعة من الأعراق والأديان، وأن الأكراد الذي يبلغون ٢٠٪ من السكان رحبوا بالاحتلال وتحالفوا معه، والشيعة الذين يقدرهم هؤلاء بـ ٦٠٪ قبلوا التعاون مع الأمريكان وشاركوا في مجلس الحكم الانتقالي الذي شكله الحاكم المدني الأمريكي« بول بريمر» وهناك الآشوريون والكلدانيون والمسيحيون والتركمان. وأن الذي يقاوم فقط هم جزء من العرب السنة أي جزء

قل من ٢٠٪ أي لا يمكن أن تصل نسبة المرحبين بالمقاومة إلى ١٠٪ ولأن المقاومة تحتاج مثل السمك إلى الماء أي إلى احتضان جماهيري، فإن غياب هذا الاحتضان الجماهيري سيجعل المقاومة بلا مستقبل، وكذا ومازلنا مع المشككين – فإن المقاومة تحتاج إلى إمدادات بالأموال والأسلحة ؛ ولأن المال والسلاح المتوافر حالياً سينفدان سريعاً فإن من الصعب استمرار المقاومة.

وبداية فإن الأرقام التي ما تفتأ دوائر التشكيك ترددها هي أرقام ليست صحيحة تماماً. والتعامل مع العراق كأعراق وأديان فقط أمر تنقصه الدقة؟، فالكرامة الوطنية والإسلامية تهم الجميع عربا وأكراداً، سنة وشيعة، وحتى لو سلمنا جدلاً بأن هناك فقط ١٠٪ من الشعب العراقي الذين يرحبون بالمقاومة، فإن معنى ذلك أن الحميم ينتظر الأمريكان وأن مستقبل المقاومة عظيم ومشرق؛ لأنه إذا كانت مقاومة تستند إلى ١٠٪ فقط من السكان فقد استطاعت أن تحقق هذا القدر الهائل من النجاح، وأنزلت هذا الحجم من الخسائر في صفوف الأمريكان وحلفائهم، وتميزت عملياتها بالشجاعة والجرأة والذكاء والدقة، فما بالك لو شارك كل الشعب العراقي أو قطاع واسع منه، وهذا أمر بالطبع مرشح للحدوث؛ لأن الاحتلال ستنفضح أهدافه مع الوقت، وستتآكل الأحلام والأكاذيب حول دوره التحريري، وعقدة الاستبداد أو الاضطهاد الطائفي مع الوقت طبعاً. وكذا فإن تردي الأوضاع المعيشية والبطالة في العراق مرشح للزيادة، وكلها عوامل ستقود يوماً بعد يوم إلى المزيد من قطاعات الشعب العراقي إلى المشاركة في المقاومة والترحيب بها، ثم إن الأجندة الأمريكية ستصطدم حتما مع طموحات زعماء الشيعة والأكراد، ولا بد أن نفصل بين أحلام وأوهام قادة أكرادًا أو شيعة ومطالب ومشاعر الجمهور الكردي أو الشيعي، خاصة أن الشيعة عرب، والأكراد سنة وأن العرب السنة هم قاعدة

التلاحم فهم عرب مع الشيعة وسنة أصناف مع الأكراد، والحقيقة أنه لا يمكن فهم مدى التعاطف والتلاحم والاحتضان الذي يكنه الشعب العر قي حالياً للمقاومة ورجالها، إلا أن ذلك لا يقتصر على نسبة الـ ١٠٪ المزعومة بل لا بد أنه يضم قطاعاً واسعاً من الشعب، رغم أنف القيادات الطائفية وإلا لما أمكن لتلك المقاومة أن تحقق مثل هذه العمليات المتميزة ضد الوجود الأمريكي والإنجليزي والأسباني والإيطالي والبولندي والياباني وهلم جرا!! ولما أمكنها أن تستخدم المدفعية والصواريخ ومضادات الطائرات والعمليات الاستشهادية والعربات الملغومة، وتلغيم الطرق، والوصول إلى مقر قيادة القوات أو المعسكرات شديدة الحراسة لولا الاحتضان الشعبي غير العادي. أما مسألة أن الأموال والأسلحة اللازمة لاستمرار المقاومة فهذه أراجيف مردود عليها، لأن المقاومة هي التي توفر السلاح بطرقها الخاصة والمقاومة، الفلسطينية نموذج، وليس مجرد وجود السلاح والمال هو الذي يصنع المقاومة، وإذا كانت المقاومة بإمكانيات ١٠ ٪ من السكان قد وفرت كل هذا الكم من السلاح والمال، فكيف يا ترى يكون عندما ينخرط الشعب كله في المقاومة بعد تآكل الأوهام والأحلام؟!. والمقاومة أولاً وأخيراً إرادة وليست أسلحة وأموالاً، فالمقاومة تعبر عن إرادة شعب، وليست حربا بين جيشين مثلاً، ووسائل المقاومة عادة بسيطة، ولكنها مؤثرة، وهي تعتمد أولاً وأخيراً على الإنسان أكثر من اعتمادها على السلاح والذخيرة.

من أراجيف المشككين أيضاً: أن القوى السياسية المؤثرة في العراق لا تريد أن ينسحب الأمريكان؛ لأنها تدرك أن الوجود الأمريكي في العراق حالياً يحمي العراق من حرب أهلية، ومن التحول إلى صومال آخر، وبالتالي فإنه سوف تتشبث بالوجود الأمريكي، وهو كلام يثير الغيظ أكثر مما يثير التأمل، فلو كان حال القوى

السياسية العراقية كذلك، لكان عليها أن تغلق أحزابها وتنصرف ما دامت غير قادرة على الحوار والتعايش، لا أن تتشبث بالأمريكان وتمسك بذيلهم، ولا يمكن فهم بلد عريق كالعراق لا يمكن أن يعيش بدون احتلال!! وأياً كان البديل فإن الاحتلال مرفوض ولتكن المشاكل ما تكون، فإنها سوف تنتهي يوماً ويعبر البلد هذه الصعاب بأي ثمن، أما أن يظل تحت وصاية الاحتلال فهو أمر لا يليق بأحد أن يقوله أو يفعله أو يؤمن به.

ويروج المشككون أيضا: أنه رغم ما يقرب من العام على اندلاع المقاومة فإنه لا يوجد بيان أو وثيقة تحدد برنامج المقاومة وتصورها بشكل الحكم والمستقبل بعد إخراج الاحتلال، وأنها مقاومة بلا قائد واحد يمكن أن يلتف الشعب حوله، وأن افتقاد المقاومة لهذين الشرطين سيجعلها تنهار حتماً.

والحديث عن عدم وجود قائد معروف للمقاومة، فهذا يرجع أولاً إلى أنها تتكون من العديد من الفرق السياسية والوطنية والإسلامية، يجمعها جميعاً الرغبة في التخلص من الاحتلال والدفاع عن الوطن والكرامة وبديهي أن تكون هناك جماعات كثيرة وقيادات كثيرة متوسطة وأن استمرار المقاومة سيجعلها تصل إلى ذلك الشرط، وحتى لو لم تصل إلي ذلك فهو ليس شرطاً مقدساً لا يمكن لمقاومة أن توجد بدونه، وليس شرطاً تطبيق تجارب معينة وتعميمها على كل النماذج والتجارب، أما عدم وجود وثيقة تحدد البرنامج وشكل الحكم بعد الاستقلال، فهذا هراء ينبغي ألا تقع فيه المقاومة الآن، بل إن وثيقتها الوحيدة والممكنة حالياً وبرنامجها الذي لا برنامج سواه: هو مقاومة الاحتلال بكل الوسائل والطرق حتى يندحر ويزول وبعدها لكل حادث حديث.

***

بقي أن نرصد تلك الذريعة الممجوجة حول أن تلك المقاومة لا تملك تغييراً إقليمياً، مثلما كانت فيتنام مثلاً حيث كان هناك محيط معادٍ للأمريكان ومتعاون مع المقاومة الفيتنامية، مثل كمبوديا ولاوس وروسيا والصين، فضلاً عن الدعم الدولي من المنظومة الاشتراكية والأحزاب الشيوعية، وهذه حجة لو كانت صحيحة لكانت لصالح المقاومة العراقية، فإنها رغم هذا الظرف غير المواتي اندلعت سريعاً، وصمدت وتصاعدت وأنجزت ولكن بالإضافة إلى ذلك فإن المحيط الشعبي العربي والإسلامي منحاز للمقاومة، وهو أفضل من الدعم الحكومي أو الرسمي غير الموجود والذي كان سيفرض على المقاومة توازنات تؤثر عليها سلباً، كما أن المقاومة تحظى بدعم عالمي من كل المستضعفين في العالم وهم الأغلبية، ومن كل القوى المناهضة للعولمة والمناهضة لأمريكا والمناهضة للمشروع الصهيوني الأمريكي في الهيمنة على العالم.

■ ■ ■

المقاومة العراقية

أصبحت المقاومة العراقية رقماً مهمّاً في معادلات المنطقة الاستراتيجية، وإذا ما استمرت وتصاعدت تلك المقاومة – وهو الأمر المتوقع نتيجة عوامل كثيرة عراقية وعربية وإسلامية وعالمية – فإن كثيراً من المتغيرات ستنال المنطقة، أول هذه المتغيرات: هو أن المخطط الأمريكي للمنطقة سيصاب بكثير من الخلل والعطب. أي أن ذلك المخطط سيصبح في حالة دفاع ومحاولة تثبيت أوضاعه أكثر مما سيصبح في حالة هجوم، وتحقيق المزيد من الأهداف، وهذا يعني مباشرة أن المقاومة العراقية سوف تحمي إلى حد كبير سوريا وإيران والمقاومة الفلسطينية وحزب الله ولبنان من الهجوم الأمريكي الذي كان متوقعاً عليها، ولا شك أن لهذا الأمر أثرا كبيرا في مجمل الأوضاع في المنطقة، والمقاومة العراقية أيضاً ستغري العديد من القوى والدول – محليا وعالمياً – بالاستمرار في معارضة أمريكا، أو عدم الانصياع لها، وسوف تشجع تلك المقاومة ازدياد المقاومة الأفغانية مثلاً، وتفاقم وتصاعد حالة معارضة العولمة والأمركة عالمياً، والمزيد من التصلب في مواقف فرنسا وألمانيا والصين وروسيا، بالإضافة طبعاً إلى رفع الروح المعنوية العربية وبالتالي زيادة قوة وزخم المقاومة الفلسطينية وحزب الله.

وعلى العكس من ذلك على طول الخط، فلو تم استقرار الوضع الأمريكي في العراق، ولم تظهر حالة المقاومة العراقية، لكان من الطبيعي أن تزداد شهية الذئب الأمريكي الجائع للمزيد من العدوان على إيران وسوريا ولبنان، والمزيد من الدعم الأمريكي لمشروع شارون الاستيطاني، ولزادت حدة وسيطرة صقور الإدارة الأمريكية ومفاهيم الإمبراطورية في الولايات المتحدة الأمريكية.

والمقاومة العراقية هي التي جسمت وأزهرت ما يسمى بتلفيق الأدلة في موضوع أسلحة الدمار الشامل العراقية، فالحديث عن كذب بلير، وبوش، أو تلفيق أجهزة المخابرات البريطانية والأمريكية لتلك الأدلة، وزيادة الضغط الشعبي في بريطانيا وأمريكا في هذا الاتجاه، لم يكن ليحدث أصلاً لولا اندلاع المقاومة العراقية وحدوث نزيف الخسائر والقتلى الأمريكيين والبريطانيين بسبب تلك المقاومة، الأمر الذي رفع حالة الاهتمام الشعبي والرغبة في الانسحاب من المستنقع العراقي، وبالتالي البحث في الدفاتر عن الأسباب الحقيقية للحرب، وكشف الزيف في هذا الأمر، ولولا المقاومة العراقية لتاهت مثل هذه الموضوعات في ضباب الاستقرار والإنجاز والانتصار الأمريكي، أو كانت ستصبح أموراً ضعيفة التأثير في أحسن الأحوال.

اندلعت المقاومة العراقية في فترة وجيزة جداً، وهذا دليل في حد ذاته على مدى وعي الشعب العراقي وصلابته، فصدمة سقوط بغداد الدرامية في ٩ إبريل ٢٠٠٣ لم تسقط وعي الشعب العراقي، ولم تسقط حيويته، وهو درس بليغ لكل الشعوب، وهو دليل على عبقرية الشعب العراقي وصلابته الأمر الذي تؤكده حقائق التاريخ والجغرافيا لهذا الشعب العظيم، وأصبح لدينا الآن أكثر من حالة وظاهرة وموقع يستحق الاحترام في الجسد العربي، المقاومة اللبنانية، والمقاومة الفلسطينية، والمقاومة العراقية. وهو أمر جدير بتحقيق نوع من إعادة العافية إلى مجمل الجسم العربي لو تم استثمار تلك الحيوية بشكل صحيح، ولم يتم حصارها والقضاء عليها من الأنظمة العربية سيئة الصيت، أو القوى والمثقفين المهزومين سلفاً.

حالة المقاومة العراقية أثبتت أن حيوية الجسم العربي والإسلامي ليست مجرد استثناءات لا تشكل ظاهرة ولا يمكن تعميمها، بل إن ذلك هو الأصل، وهو أمر

ـه مردوده الاستراتيجي والتكتيكي على كل مستوى. وهذا بالطبع يقتضي إعادة لنظر إلى الكيان العربي والإسلامي في اتجاه إشاعة روح الأمل، وإشاعة ثقافة لمقاومة والتبشير بعصر عربي وإسلامي رائع وعظيم، رغم ظلام ويأس المرحلة الذي طال الأنظمة المتهالكة ولكنه لم يمس جوهر الشعوب، والحمد لله على ذلك.

***

المقاومة العراقية ، إذن ، اندلعت في وقت قياسي، واستطاعت أن تقوم بعمليات يومية، في أكثر من بلد ومكان، وفي بعض الأحيان كانت تقوم بأكثر من عملية في أكثر من مكان، وإذا كان الحديث الأمريكي الرسمي يتحدث من عدد معين من القتلى بسبب المقاومة، فإن الرقم الحقيقي أكبر من ذلك بكثير، ومن المثير أن بلدًا مثل الفلوجة المدينة الصغيرة التي يصل عدد سكانها إلى ٢٠٠ ألف نسمة قامت وحدها بعمليات متميزة يمكن القول بعدها :إن مدينة صغيرة استعصت على الجيش الأمريكي، وأن من الممكن ، بالتالي ، أن تصمد أي مدينة أو قرية أمام جحافل أي قوة عدوانية مهما كانت قوتها. والمقارنة المهمة بالنسبة للمقاومة العراقية أنها ظهرت رغم وجود حالات ومظاهر سلبية كثيرة في الواقع العراقي والعربي، أي رغم صدمة سقوط بغداد بطريقة درامية وغامضة، ورغم صدمة التواطؤ الرسمي العربي على العراق ومساعدة دول عربية لآلة العدوان الأمريكي، ورغم تردد قوى إقليمية وعربية في دعم تلك المقاومة لسبب أو لآخر، بل رغم تردد قطاعات الشيعة في العراق عن المشاركة الواسعة في المقاومة – حتى الآن – وهم قطاع كبير من الشعب العراقي لو شارك في المقاومة لتغيرت المعادلة تماماً، ولاهتزت الأرض من تحت أقدام العسكر الأمريكي تماماً، على كل حال فإن كل تلك العوامل لم تكن عائقاً – رغم خطورتها – عن ظهور المقاومة في المناطق السنية غرب بغداد ومناطق أخرى، واستمرار

المقاومة سيدفع بالضرورة المترددين إلى الالتحاق بقطار المقاومة؛ لأن المقاومة ستعطي مشروعية تاريخية لمن يقوم بها ... وبديهي أن أحدا من القوى السياسية أو الدينية في العراق لن يحرم نفسه من تلك المشروعية المستقبلية وإلا كان غبياً، بل أحمق.

أثبتت المقاومة العراقية – كما أثبتت المقاومة الفلسطينية واللبنانية قبل ذلك، أن إرادة الشعوب لا تهزم، وأن من الممكن بل من السهل ضرب القوى الجبارة وإنزال الألم بآلتها العسكرية والسياسة ﴿ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ وأنه مهما فعلت القوى الاستعمارية، وحلفاؤها من الحكومات والمثقفين – المارينز الثقافي ومهما فعلت استخباراتها فإن المقاومة لا تموت. ويكفي أن نعرف أن الأمريكان قاموا بزيادة مكافأة من يدلي بمعلومات عن القادة العراقيين السابقين، وهذا في حد ذاته دليل على العجز، كما قاموا بعدد من العمليات لمحاولة اجتثاث المقاومة دون جدوى، أسموها: درع الجزيرة، عقرب الصحراء، والأفعى ذات الأجراس، وغيرها من الأسماء؛ ولا تزال المقاومة مستمرة. بل وتحظى المقاومة باحترام الشعب العراقي، ولعلنا نشاهد العراقيين يتجمعون بعد كل عملية حول الآليات الأمريكية المعطوبة بسبب عمليات المقاومة، ويلقون عليها الأحذية والأحجار في إشارة رمزية أن كل عراقي يتمنى أن يشارك في المقاومة، وهو أمر له دلالاته المستقبلية، أما الحديث الأمريكي أو حديث بعض المحللين عن أن المقاومة غير منظمة أو أنها مجرد حالة فهو كلام لا قيمة له؛ نظراً لحجم الخسائر ونوعية العمليات التي تنفذها المقاومة وانتشارها في قوس واسع من أرض العراق.

ويكفي أن الجنود الأمريكان يعيشون في رعب داخل العراق، كُلٌّ منهم يتوقع في أي لحظة أن تقتله المقاومة، وهو أمر سيحدث مستقبلياً مؤكداً على المخطط الأمريكي، بل على الإدارة الأمريكية كلها.

الفلوجة تكتب المستقبل

ليس هناك مكان في العالم أجمل من الفلوجة، وليس هناك مدينة عربية في جمال تلك المدينة الساحرة، وليس هناك من المجاهدين أو المناضلين من ترتفع قاماتهم إلى قامات رجال الفلوجة أو نسائها أو أطفالها. تقف الفلوجة – مدينة المآذن الشامخة المجاهدة بين مدن مثل: حطين، وعين جالوت، وترتبط بحبل سُرِّيٍّ بجنين. ولذا فإن المناضلين الفلسطينيين الذين خرجوا في مظاهرات تضامن مع المقاومة العراقية كانوا على حق حين قالوا: إن بغداد هي القدس والفلوجة هي جنين، وإذا كانت جنين هي مدينة الصمود والملحمة في وجه الاجتياح الفلسطيني فإن الفلوجة تجاوزت كل المدن الجميلة والرائعة، ونحن لا نقلل من جهاد أهل جنين وبطولاتهم، ولا الثمن الغالي الذي دفعوه من الشهداء والجرحى والمباني المهدمة والألم والحصار، ولكن للفلوجة سياقًا آخر، ومذاقًا آخر، إنها صمدت أمام أكبر آلة عسكرية استخبارية في التاريخ، لم تقاتل فقط وتقتل من الأمريكيين الكثيرين فقط، ولكنها استعصت على السقوط زمناً أطول من أي زمن آخر ومكان آخر، ولذا فإن الفلوجة عروس المجاهدين، وقلعة الإسلام، ومفخرة العرب في كل زمان ومكان.

الفلوجة هي المكان الأكثر زخماً في المقاومة العراقية منذ بدأت هذه المقاومة وليس في الأحداث الأخيرة فقط، وكانت الفلوجة دائماً هي ترمومتر المقاومة، ومقياس الصمود العراقي أمام جحافل الغزو الأمريكي البغيض، الفلوجة هي أكثر الأماكن العراقية حتى الآن اشتباكا مع الأمريكان، أو تكبيدهم الخسائر، وتكاد تكون المدينة العراقية الوحيدة المحررة منذ بدأت المقاومة، حيث دائماً ما اضطرت القوات الأمريكية إلى الخروج منها والاستقرار في مواقع خارج المدينة منذ وقت

طويل. وهي المدينة التي قدمت كل أنواع المقاومة من مهاجمة قوافل العدو أو إسقاط مروحياته أو حرق مركباته أو عمل كمائن على الطرق ... إلخ.

مدينة الفلوجة التي يبلغ عدد سكانها ٢٠٠ ألف نسمة استطاعت أن تهزم أمريكا، نعم تهزم أمريكا لأنها استعصت دائماً على الخضوع لأمريكا وقوات أمريكا، ولنا أن نتصور مقاومة أهل الفلوجة – المدينة الصغيرة – إذا تكررت في كل مكان بالعراق، فإذا كان عدد سكانها ٢٠٠ ألف أي حوالي ٨ , ٠٪ من عدد سكان العراق، أي إن سكان ومدن العراق لو فعلت مثل الفلوجة، لخرج الأمريكان بعد يوم واحد، حيث لا طاقة لهم بهذا النوع من المقاومة، ولن يتحملوا مثل تلك الخسائر، وهكذا فإن المثلث السني العراقي هو رأس المقاومة وعمودها الفقري، والفلوجة هي ذروة سنام المقاومة بلا منازع، ولذا فإن الحقد الأمريكي عليها لا يوصف، وهذا يوضح ويبين لماذا تعرضت الفلوجة للحصار والضرب بطائرات الإفّ ١٦، والهليوكوبتر وبالدبابات والصواريخ وبكل شيء تقريباً.

الفلوجة تكتب المستقبل بالفعل؛ لأن فعل المقاومة العراقية هو الفعل العربي الإسلامي النبيل الأكبر والأبرز، والفلوجة هي عنوان تلك المقاومة، وعلى المستوى العراقي فإن الفلوجة هي من رفعت هامات العراقيين، وأعادت إليهم العزة والفخار والاستعلاء، ولذا فهي قاعدة المستقبل والاستقلال للعراق، وعلى المستوي العربي والإسلامي فإن الفلوجة هي عنوان المقاومة العربية والإسلامية ضد المشروع الأمريكي، وهي الجزء الحي في الجسد العربي مع أجزاء أخرى طبعاً، ولكن الفلوجة هي الأكثر حيوية ، وبالتالي فإن إعادة العافية إلى الجسد العربي الإسلامي، وإقلاعه من وهدة الانحطاط والمرض يبدأ من الفلوجة، ولن يكون غريباً أن يقرأ أحفادنا في المستقبل القريب أو البعيد، أن عصر العالمية الإسلامية الثانية بدأ من

الفلوجة، أو أن المنحنى الإسلامي الذي كان هابطاً قبل ظاهرة المقاومة العراقية قد بدأ انقلابه باتجاه الصعود من جديد في مدينة الفلوجة الباسلة بدءاً من عام ٢٠٠٣، ٢٠٠٤، بل يمكن أن يؤرخ لبداية السقوط الأمريكي ونهاية مشروع الاستكبار الدولي، والمخطط الصهيوني الأمريكي، على أرض الفلوجة وانطلاقا منها، وهكذا فالفلوجة هي رمز عراقي ورمز عربي ورمز إسلامي ورمز عالمي له شأنه وأي شأن.

ومن البديهي أننا لن نفعل مثل الآخرين ونبكي على الفلوجة، وشهداء الفلوجة، والمجازر الأمريكية في الفلوجة، وقصف المساجد والمباني وتدمير البيوت والأشجار والمدارس، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وتحققوا العزة والكرامة بدون شهداء وضحايا، ومهما كان عدد الشهداء والضحايا والخسائر والآلام، فإنها فريضة الدم والاستشهاد، وهي فريضة لا بد منها، بل هي شرط النصر والصمود والصعود والإقلاع بإذن الله تعالى.

وإذا كانت جنين وأمثالها هي النموذج لقدرة الإنسان على مواجهة الآلة، فإن الفلوجة هي الأكثر وضوحاً والأعمق في هذا الإطار؛ لأنها مدينة صغيرة« ٢٠٠ ألف نسمة»، وهي تواجه أكبر قوة غاشمة في التاريخ وليس بعد أمريكا قوة حتى الآن، وبالتالي فإن درس الفلوجة هو الدرس الأوضح الذي لا يمكن بعده أن يكابر أحد، أو يغالط في أننا أمة قادرة على المواجهة والصمود، وأن أصغر قرية في العالم – وبالذات العالم العربي والإسلامي لأسباب حضارية وثقافية ودينية مرتبطة بالجهاد والاستشهاد – قادرة على مواجهة أمريكا والصمود أمام أمامها، بل وإنزال أكبر الأذى بها. وبالتالي فإنه يمكن أن نؤرخ بما قبل الفلوجة وما بعد الفلوجة، حيث ستصبح نموذجاً يقتدى به في كل المدن والقرى والجماعات البشرية الطامحة، في مواجهة الاستكبار الدولي ومناهضة أمريكا ... إن الفلوجة هي عزنا جميعاً، ولذا

فهي تستحق الدعم العراقي والدعم العربي والدعم الإسلامي، بل والدعم العالمي، لأنها اختارت لنفسها شرف أن تكون رأس الرمح في مشروع المقاومة والنهوض العراقي والعربي والإسلامي والعالمي.

من العناوين الخطأ، والممارسات الخطأ، يمكننا أن نرصد ما سمي بوفد المفاوضات العراقي الذي تكون من بعض أعضاء مجلس الحكم الانتقالي – ذراع أمريكا في العراق – أو بعض المنتسبين للأحزاب الإسلامية أو بعض علماء الدين، ورغم ما يمكن أن يقال عن حسن النية في هذا الصدد، فإن الوساطة والمفاوضات هنا هي الطريق الخطأ ذلك أن الفلوجة عندما اختارت طريق الجهاد والمقاومة ، فإنها فإنها صعدت الجبل والطريق الصعب. وإن الفلوجة حين فعلت ذلك لم تكن تتصرف كرد فعل على اعتقال زعيم ما، أو البحث عن مقعد في مجلس الحكم، أو طلب إصلاحات أو مكاسب فئوية أو جاه أو غيرذلك، ولكنها كانت هي البادئة بالجهاد والثورة، وبالتالي فأي وساطة على أي أرضية يمكن فقط أن نتحدث عن هدنة – صحيحة أو خاطئة – وهذه الهدنة في رأينا هي ما يحتاجه الأمريكان لالتقاط الأنفاس، وإحضار المزيد من التعزيزات، وبالتالي ، فالوساطة بهذه الطريقة مهما كانت النوايا طيبة فهي ممارسة غير صحيحة وتفتقر إلى الرؤية الاستراتيجية الصحيحة، ولو كان لا بد من جهد فهو جهد الدعم بلا حدود ولا شروط وإشعال الأرض تحت أقدام الأمريكان في كل مكان بالعراق؛ لتخفيف الضغط على الفلوجة وليس شيئاً آخر.

***

تكتب المدن عادة في مداخلها مرحباً بك في مدينة كذا، ولكن الفلوجة وحدها وهذا من حقها كتبت في مداخلها« ارفع رأسك فأنت في الفلوجة». ومن حق

الفلوجة أيضاً أن يصفها الكتاب والصحفيون الذين كتبوا عنها بأنها قلعة الأسود، أو أن تصفها صحيفة الجارديان البريطانية بأنها مقبرة الأمريكان، وإذا كان الأمريكان قد اعترفوا بـ« ٥٠ قتيلاً» وعدد أكبر من الجرحي في مواجهة ٦ أيام فقط في الفلوجة، وإذا كانت العربات والدبابات والطائرات المروحية المحطمة في مداخل الفلوجة وحولها وداخلها، كلها تشهد بشراسة المقاومة ونجاحاتها الهائلة، فإن ظهور المقاتلين في الفلوجة يمسكون المصحف الشريف بيد والبندقية أو أي سلاح باليد الأخرى، لهو دلالة مهمة على البعد الإسلامي والعقائدي في الصراع ضد أمريكا، وهو شرط ضروري للصمود والانتصار؛ فمن الناحية العلمية البحتة –وفقاً لعلوم السياسية والاجتماع – فإن طبيعة التحدي وطبيعة العدو وطبيعة المعركة – تقول: إن غياب العامل الإسلامي في أي مواجهة لنا مع العدو كفيل بفشلنا؛ لأن طبيعة المعركة تفرض ذلك، بالإضافة إلى مدد الله تعالى الذي يأتي للمؤمنين المجاهدين الذين بذلوا كل الجهد، والحديث عن مدد الله تعالى في معارك الفلوجة أصبح حديثاً متواتراً، لدرجة أنه حتى الصحف ذات الميول غير الإسلامية باتت تعترف به وتنقله من لسان المقاتلين في الفلوجة من باب الأمانة الصحفية، وينقل أحد هؤلاء الصحفيين عن مقاتل في الفلوجة قوله« إننا في الفلوجة كأنما نقاتل معنا ملائكة الرحمن». صبي في الخامسة عشرة من عمره هزم ثلاثة من جنود المارينز قتل أحدهم وأصاب آخر وهرب الثالث مذعوراً؛ ليحتمي بأحد البيوت، وقد رصدت وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمصورة، أن الأمهات تحرض الأولاد على الجهاد ضد الأمريكان، حيث الأمهات يدفعن الصبية إلى الجهاد قائلات: اذهب وعاون أباك.« اذهب قُرْب أخيك» « الله أكبر ...إلي الجهاد لقتل وطرد الأمريكان» والمساجد كلها تكبر وتدعو إلى الجهاد، وتقرأ سوراً من القرآن الكريم، وخطبة الجمعة في الفلوجة ومنذ فترة طويلة كانت بمثابة الشرح السياسي

لبرنامج المقاومة العراقية في كل العراق، وليس في الفلوجة وحدها، وقد تم اعتقال أكثر من خطيب وإمام وشيخ من الفلوجة على يد قوات الاحتلال منذ بدء المقاومة.

وهكذا ، فإن العوامل كلها تقود إلى صمود ومواجهة ناجحة في الفلوجة، ولم يكن غريباً أو عجيباً أن تصل التعزيزات بالآلاف من قوات العدو لتشديد الحصار على الفلوجة ومحاولة اقتحامها.

***

بعد صمود الفلوجة كل هذا الوقت – حتى لو سقطت – لا يمكن الحديث عن القضاء على المقاومة العراقية، وبعد ممارسات أهل الفلوجة وما صدر منهم من مواقف وبيانات وخطب جمعة، لا يمكن الحديث عن أن مشروع المقاومة هو مشروع حرب أهلية أو طائفية، أو مسألة إعادة النظام السابق أو إعادة الديكتاتورية أو غيرها من محاولات تشويه الوجه الجميل والمضيء للمقاومة. وإذا كانت الفلوجة التي تبعد عن بغداد ٥٠ كيلو مترا، والفلوجة تعني الأرض الصالحة للزراعة. وهي مدينة مشهورة بكثرة المساجد، ففيها:« ٨٠ مسجداً كبيرا» عدا الزوايا، وتسكن الفلوجة عشائر سنية، وكان علماء الفلوجة من أبرز من شارك في الثورة العراقية ضد الاحتلال الإنجليزي في عشرينيات القرن الماضي.

■ ■ ■

انتفاضة الأقصى ثقب في جدار اليأس

حقائق التاريخ ... سنن العمران البشري والاجتماعي، تؤكد كلها أن المقاومة هي الطريق الوحيد لإنهاء الاحتلال ...أو انتزاع الحقوق ...هذه الحقيقة يجب ألا تغيب لحظة عن أعيننا خاصة في مناسبة دخول الانتفاضة الفلسطينية عامها الرابع ... متخطية عدداً هائلاً وصعباً من المنحنيات والصعاب.

هذه الانتفاضة المباركة التي اندلعت في ٢٨ سبتمبر« أيلول» عام ٢٠٠٠ عقب قيام المجرم شارون – قبل أن يصبح رئيساً للوزراء في إسرائيل وبالتواطؤ مع رئيس الوزراء الإسرائيلي حينذاك إيهود بارك – بتدنيس المسجد الأقصى المبارك بزيارته المشئومة له. هذه الانتفاضة المباركة ليست كغيرها من الانتفاضات الفلسطينية السابقة، بل هذه الانتفاضة ومعها المقاومة الباسلة التي كانت إحدى سماتها وإضافاتها المتميزة ليست كغيرها من تجارب كفاح الشعوب من أجل حقوقها، ولا شك أنها تتميز في هذا الإطار على أكثر من مستوى يتصل بطبيعة قوى الصراع وظروفه، ويتصل بالمخاطر والأحداث التي تخطتها الانتفاضة بجسارة ونجاح. فالشعب الفلسطيني لا يواجه احتلالاً عادياً مثل غيره من الشعوب، بل يواجه استعماراً استيطانياً هو الأشرس من نوعه، حيث لا يتصل فقط بعملية النهب الاقتصادي أو الأسباب الاقتصادية، والطموح الفردي فقط، بل يتصل أيضاً بأيديولوجية وعقيدة وأساطير وتاريخ، الأمر الذي يمنحه المزيد من الشراسة والتعصب، وكذا فإن الشعب الفلسطيني في انتفاضته الأخيرة لا يواجه الصهاينة وحدهم، بل يواجه تحالفاً أمريكياً صهيونياً هو الأبرز في ظل حالة العولمة، ويواجه أمريكا مباشرة بعد شروعها الإمبراطوري، ومحاولتها إعادة صياغة المنطقة بطريقة

معينة، يواجه أمريكا في ذلك، وهي الوحيدة المنفردة بالقوة في العالم بعد سقوط الاستقطاب الدولي، وانهيار المنظومة الاشتراكية وتفكك الاتحاد السوفيتي السابق، بل أكثر من ذلك فإن الحق الفلسطيني لا يجد من يسنده، ولا حتى بكلمة عدل من القوى الفاعلة في العالم، وقد ظهر ذلك جلياً عندما وضع الاتحاد الأوروبي الجناح السياسي لحركة حماس على لائحة الإرهاب، وكذا في بيان اللجنة الرباعية المكونة من أمريكا وروسيا والاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة الذي ادعى أن لإسرائيل الحق في الدفاع عن نفسها، وطالب الفلسطينيين بالتوقف عن العنف وهو ما اعتبره الفلسطينيون أمراً مزريا بهم وبحقوقهم« يقصد الفلسطينيين الذين يراهنون على السلاح وأوربا وأمريكا والأمم المتحدة» وهكذا فإن القضية الفلسطينية على عكس كل القضايا – ربما بسبب النفوذ الصهيوني أو الوجدان الصليبي الغربي المتصل بخصوصية فلسطين مكانا وزماناً – لم تجد تعبيراً حقيقياً من القوى الفاعلة في العالم – وصحيح أن معظم الشعوب بل والحكومات غير القوية تؤيد الفلسطينيين، ولكنه تأييد أدبي ، حيث إنها لا تمتلك القوة الكافية والنفوذ الكافي لفرض إرادتها.

وبالإضافة إلى ذلك – وقبله وبعده – فإن الحكومات العربية والإسلامية في حالة تجزئة وتفكك وضعف وتبعية لا تسمح لها بدعم الفلسطينيين دعماً حقيقياً، إن لم يكن الوقوف ضد المقاومة في بعض الحالات. وهكذا فإن الكفاح الفلسطيني يتميز على غيره بصموده واستمراره رغم تلك الظروف القاسية. وكذا فإن الانتفاضة تحديدا مرت بمنحنيين خطيرين، الأول: هو حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بعد اندلاع الانتفاضة بحوالي عام، وهو حادث ترتب عليه تصاعد قوة اليمين الأمريكي، وإعلان أمريكا الحرب على ما يسمى بالإرهاب، ووضع حركات المقاومة الفلسطينية في هذه الخانة الضيقة، وزيادة مساحة التحالف الأمريكي

الصهيوني، بل إن شارون استغل الحادث بسرعة وخبث، حيث أعطى الانطباع بأنه يحارب المعركة الأمريكية ذاتها ضد النوع نفسه من الإرهاب، بل قال لبوش: إذا كنت تحارب «بن لادن» في أفغانستان فأنا أحارب عشرات «بن لادن» في فلسطين!، وللمنحنى الثاني: هو سقوط العراق في يد القوات الأمريكية في إبريل ٢٠٠٣، الأمر الذي اعتبره الإسرائيليون نهاية متاعبهم بغياب القوة العراقية عن معادلة الصراع وعن دعمها المعروف للمقاومة والشهداء والانتفاضة، والأثر النفسي العكسي لسقوط بغداد على الروح المعنوية للمقاومة، وللشعب الفلسطيني عموماً، وبدا أن المسألة ستكون لصالح الإسرائيليين على طول الخط، فسقوط بغدد يعني خوف سوريا وإيران ولبنان، بل مصر والسعودية أيضاً، أي إن الخط أصبح مفتوحاً لإعادة صياغة المنطقة وفلسطين على الهوى الأمريكي الإسرائيلي. في كلا المنحنيين صعد شارون وحكومته ومؤسسته العسكرية، بالضغط العسكري والسياسي على الفلسطينيين، ولكن في كل مرة صمد الشعب الفلسطيني وخرج من المنحنى بنجاح، على الأخذ في الاعتبار أن الاندلاع السريع والنوعي للمقاومة العراقية ساعد في تعديل الكثير من المعطيات لصالح الفلسطينيين، ولكنه أيضاً كفاح شعبي، أي عملياً .. أن الفلسطينيين والمقاومة والانتفاضة صمدوا على عكس المعادلات رغما على المعادلات والمنحنيات، وهو تميز لا شك فيه لصالح الفلسطينيين.

***

قال شارون سأقضي على الانتفاضة والمقاومة في ١٠٠ يوم ومرت سنوات وشهور وأيام، ولازالت الانتفاضة متقدة والمقاومة تتصاعد، فعل شارون وحكومته ومؤسسته العسكرية كل شيء دون جدوى. قتلت إسرائيل ٢٧٠٠

فلسطيني منذ بدء الانتفاضة بينهم ٤٩٠ طفلاً و ١٨٠ امرأة، وتم جرح ٣٧ ألف جريح واعتقال ٨٠٠٠ معتقل من بينهم عدد من المعتقلات، وتم ارتكاب انتهاكات ضد الصحفيين ٤٧٣ مرة ما بين قتل وإصابة واعتقال واحتجاز وتقييد حركة ومنع من التغطية، وتدمير ٣٩٠٠ منزل بشكل كلي، و٥٠ ألف مسكن بشكل جزئي كما تم تدمير ٧١٠٠ منشأة اقتصادية، وبلغ عدد العاطلين عن العمل ٣٠٢ ألف بسبب العدوان الصهيوني بنسبة ٤٤٪ من القوة البشرية العاملة ، وبلغت نسبة الفقر في فلسطين المحتلة ٦٠٪، أما الأراضي التي تم تجريفها ٦٠٥٠٠ دونم، واقتلاع ٩٤٠ ألف شجرة« أي ما يقترب من المليون شجرة» وبلغ عدد القصف الإسرائيلي ٢٠٦٠٠ مرة، واستخدمت إسرائيل الطائرات القاذفة الثقيلة من طراز إفّ ١٦ في ضرب المنازل المدنية، وكذلك طائرات الأباتشي في اغتيال عناصر المقاومة، والدبابات والمدفعية والمشاة وسلاح المهندسين ... إلخ ... وحاولت أو اغتالت فعلاً تقريباً كل العناصر القيادية النشطة في حماس والجهاد الإسلامي، وفتح، وغيرها بمن فيها اغتيال الأب الروحي والزعيم المؤسس لحماس الشيخ/ أحمد ياسين، أي إن إسرائيل فعلت كل ما تستطيع ومعها أمريكا عسكرياً، وأوربا وروسيا سياسياً للقضاء على الانتفاضة ولم تفلح.

وإذا اعتبرنا ذلك نوعا من التحيز لصالح الانتفاضة وهكذا ينبغي أن يكون الاستنتاج – فإن بعض المنبطحين يرون أن ذلك استنزاف للموارد الاقتصادية والبشرية للشعب الفلسطيني، ويعتبرون ذلك أحد سلبيات الانتفاضة، وبالتالي يجب وقفها، أو على الأقل عدم عسكرتها على حد قولهم، وهذه الأقوال تنم عن السذاجة أو الخداع، فالقتل والتدمير والاغتيال لم يتوقف إسرائيلياً قبل الانتفاضة، وقبل عسكرتها، بل إن المجازر المعروفة تمت بدون عنف فلسطيني وبدون انتفاضة،

والانتفاضة والمقاومة يقللان عادة من حدة التوحش الإسرائيلي والأمريكي وليس العكس، وعلى مستوى أن الانتفاضة فتحت الباب أمام اليمين الإسرائيلي ليكسب الانتخابات، ويزداد قوة فهذا هراء؛ لأنه نوع من التطور الطبيعي لمجتمع عدواني، وكذا فإن الوحشية الإسرائيلية لم تكن أقل في حالة وجود حكومة يسارية أو عمالية في إسرائيل، وعلى مستوى أن عسكرة الانتفاضة أعطت الذريعة لإسرائيل للولوغ في الدم الفلسطيني، فالولوغ في الدم الفلسطيني كان ولا يزال سياسة إسرائيلية ثابتة قبل عسكرة الانتفاضة وقبل الانتفاضة ذاتها، والذي عسكر الصراع أصلاً هو أمريكا وإسرائيل، وأخيراً وليس آخراً، فإن الجولان السورية المحتلة مثلاً لم تحدث بها عمليات عنف ولم تخرج إسرائيل منها، رغم مرور ما يقرب من ٣٧ عاماً حتى الآن.

وهكذا فلا تحرر إلا بالمقاومة، وليست المقاومة هي سبب البلاء بل العكس، المهم أن الشعب الفلسطيني وحركات المقاومة برغم كل ما تفعله إسرائيل كان قادراً على تجديد نفسه، وتجديد الأطر القيادية والاستمرار في المقاومة في ظل كل الظروف، ويجب هناك أن ندرك أن المقاومة استعصت على الذبح، ووصلت بعملياتها إلى يافا، وحيفا والجليل، وتل أبيب، والقدس، أي كل مكان في إسرائيل، وفي مستوطنات الضفة، وغزة كثيفة الحراسة، وفي كل الأوقات بما فيها أشد الأوقات استنفارا واستبداداً من جانب السلطات الصهيونية والاستخبارات الأمريكية، ورغم حالة الطوارئ القصوى في الأجهزة الإسرائيلية تتم عمليات في القدس وتل أبيب وغيرهما، وهكذا فالمقاومة قادرة على العمل في أي مكان وأي زمان، وهذا معناه أن المقاومة لن تهزم إن شاء الله.

***

﴿ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ إذا كان معدل الألم الفلسطيني عالياً بسبب الممارسات الوحشية الصهيونية، فإن ضريبة الدم والراحة تدفعها الشعوب لنيل حقوقها، وليس أمامها خيار آخر. لأن الاستكانة تعني المزيد من الموت والألم والمهانة إلى جانب ضياع الحقوق، ولكن الطرف الإسرائيلي بدوره يعاني من شروخات خطيرة، بل إن الانتفاضة والمقاومة بهذه الطريقة يمكن أن تؤدي إلى الإنهاء الكامل للكيان الصهيوني، وهذا ليس كلاما عاطفياً، بل إن تقارير إسرائيلية وشخصيات إسرائيلية مرموقة تردد هذا الكلام ذاته، وبداية فإن الانتفاضة الفلسطينية تسببت في مصرع ٨٠٠ إسرائيلي، وجرح ٥٠٠٠، كما خسر الاقتصاد الإسرائيلي بسبب الركود وحروب رؤوس الأموال، وإعلان المنشآت الاقتصادية وتأثرت حركة السياحة حوالي ٩ مليارات دولار رغم خفض الميزانية الإسترئيلية للعام ٢٠٠٤ حوالي ٧٥٠ مليون دولار، وكان قد تم خفضها في العام ٢٠٠٣ بحوالي ٢,٨ مليار دولار لاحتواء العجز في الميزانية، وارتفع معدل البطالة الإسرائيلي ليبلغ ١١٪ من اليد العاملة الفعلية أي نحو ٣٠٠ ألف شخص، وتراجعت الرواتب بمعدل ٤,٦٪ في النصف الأول من العام الجاري مقارنة بالفترة نفسها من العام الماضي، وبلغ عدد الهجرة العكسية من إسرائيل وفقاً لتقرير أعده عدد من الخبراء الإسرائيليين من الكنيست، ووزارة الخارجية والاستخبارات الصهيونية حوالي ٧٥٠ ألف شخص، وإن هؤلاء الأشخاص من ذوي الشهادات العلمية العالية، أو المهن ذات الأهمية، وإن النسبة مرشحة للزيادة: لأن الذين بقوا في إسرائيل منهم عدد كبير يريد الهجرة منها لو أتيحت له فرصة عمل حقيقية في الخارج، وهذا سبب ارتفاع نسبة المهاجرين من حاملي الدرجات العلمية، أو ذوي المهن الرفيعة، قال التقرير: إن ٨٦٪ من المهاجرين من إسرائيل هم من رجال المال، أو الشخصيات العلمية المرموقة أو أصحاب المهن الرفيعة المستوى.

ويري إبراهيم بورج رئيس الكنيست الإسرائيلي« أن إسرائيل تعيش كارثة لن ينجو منها أحد، وأن إسرائيل مهددة بالفناء» وفي تقرير لبورج ـ شهادة للتاريخ ـ حيث اعترف بورج:« بأن المستقبل مظلم بالنسبة لإسرائيل، وأن الفلسطينيين سينتصرون في النهاية وأن ذلك لن يستغرق وقتاً طويلاً بها، قد يحدث على مدى عشرين عاما فقط، فالآلة العسكرية الإسرائيلية، مهما حصدت من أرواح الفلسطينيين إلا أنهم صمدوا لأنه ليس لديهم شيء يخافون عليه، إنهم متمسكون بالأرض وبالموت عليها. وقد أرهقنا الصراع معهم أكثر مما أرهقناهم».

الانتفاضة المباركة هي قدر الشعب الفلسطيني، والمقاومة هي سبيله الوحيد للتحرر ولنيل الحقوق والمحافظة على الكرامة، والانتفاضة هي الجزء الحي الباقي في الجسد العربي المهترئ، بل هي العامل الأهم في إعادة الحيوية والصحة إلى ذلك الجسد العليل، وبالتالي فهي الأمل، والتمسك بها واجب وطني وديني وقومي، ومن أجل المصلحة والوجود نفسه، وبعد أن أظهرت الحقائق عارية، بعد أن أصبحت أمريكا في مواجهتنا مباشرة، بعد كل ما قدمته لإسرائيل أو فعلته بنفسها، فإنه لا خيار آخر لهم إلا الموت بعد الاستسلام، أو الموت والحياة مع المقاومة،الموت والحياة مع الكرامة مع المقاومة أفضل من الفناء الحضاري والفناء الحقيقي البشري والاقتصادي إذا تآمرنا على أنفسنا وأوقفنا المقاومة أو حاصرناها أو لم ندعمها.

■ ■ ■

نهاية الوهم بداية النصر

إذا كانت خارطة الطريق ، وهي الخطة التي قدمها الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش إلى الفلسطينيين والإسرائيليين وقبلها الطرفان الرسميان، كانت نوعا من الوهم والخداع والتخدير، ولم تقدم شيئاً حقيقياً للفلسطينيين، وهي في أحسن الظروف والنوايا نوع من التصفية للقضايا الفلسطينية الجوهرية، في مقابل أوهام عن دولة فلسطينية لا تكاد ترى على الخريطة، ولا تكاد تمتلك أي مقومات للبقاء، فإن الطرف الإسرائيلي سعى مباشرة لتصفية هذه الخارطة بممارساته القمعية المستمرة، وتجاهله للسلطة الفلسطينية رغم انبطاحها، ثم بناء الجدار العنصري العازل ... إلخ ...وهي ممارسات وصفتها دوائر السلطة ذاتها بأنها تنسف فكرة السلام من جذورها، إلا أن تلك السلطة ومن لفّ لفها من مثقفين وسياسيين منبطحين راحوا يبحثون عن وسيلة لإرضاء الأمريكيين عن طريق إدانة العنف الفلسطيني، أو الاستمرار في المراهنة على دور أمريكي ضاغط على إسرائيل – وهو وهم طبعاً – ولكن المهم في المسألة أنه كانت هناك سطور من الوهم تسمى: خارطة الطريق يمكن لمن يريد أن يخدع نفسه أو يخدع الناس التمسك أو التلويح بها، أو البحث عن موقف ما للرباعية الدولية أو الاتحاد الأوروبي!! ورغم أن المسألة كانت واضحة لأن الأمريكان دعموا الإسرائيليين بكل شيء من سلاح ونفوذ وفيتو.

ورغم التأييد الأوروبي الصامت أو المتواطئ مع إسرائيل مع بعض المواقف النقدية الشكلية التي لا تسمن ولا تغني من جوع، رغم أن المسألة كانت واضحة، إلا أن الغريزة الاستعمارية الأمريكية والصهيونية أبت إلا أن تسقط ورقة التوت عن الجميع، وتضعنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها. ولأن هذه الغريزة

الاستعمارية الأمريكية - الصهيونية غبية - وهذه حكمة الله تعالى - ولأنها محملة بعداء صليبي طويل وعميق ، فإنها تفعل أفعالاً أقل ما يقال فيها أنها تحرج أصدقاء أمريكا، وتنسف منطق دعاة السلام المزعوم، وتستفز الشعوب العربية والإسلامية - والفلسطينية بالطبع - وهذا طبعاً لصالح المقاومة وثقافة المقاومة، ولأننا ندرك منذ الوهلة الأولي، ويدرك أي دارس ومحلل ينطلق من المعطيات المجردة، أنه لا سبيل هناك لانتزاع الحقوق كلها أو بعضها إلا بالمقاومة، فإن ما تفعله أمريكا وإسرائيل مفيد على المستوى الاستراتيجي لأمتنا وقضيتنا، ذلك أنها تدفع الشعوب دفعاً إلى اليقظة وإسقاط الأوهام، ومن ثم التخندق في خندق المواجهة كخيار وحيد لا بديل عنه.

الموقف الأمريكي الأخير والذي اتخذته الإدارة الأمريكية عقب زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلي آرئيل شارون الأخيرة إلى واشنطن، عبر تعبيراً كاملاً عن الانطباق الأمريكي الكامل مع الموقف الإسرائيلي، وهذا في حد ذاته خير، حتى نعرف جميعا أن العدو الإسرائيلي هو العدو الأمريكي، وأن النضال والجهاد في العراق هو ذاته النضال والجهاد في فلسطين وفي كل مكان، وأن علينا أن نواجه الحلف الأمريكي الصهيوني كشيء واحد، وألا ننخدع بعد الآن بإمكانية الاستفادة من الموقف الأمريكي في فلسطين رغم ما يفعله في العراق.

ولعل هذه النقطة في حد ذاتها تنهي أوهام الحكومات العربية أو الإسلامية التي تدعو إلى ذلك وتراهن عليه، فإما أن تفيق من الوهم، وإما أن تلطخ نفسها بعار الخيانة، أو داء الغبار والبلاهة.

ونلاحظ أن الموقف الأمريكي الأخير الذي تمخض عن اجتماع بوش وشارون جاء عقب زيارة للرئيس المصري إلى واشنطن!!.

الموقف الأمريكي تمثل في عدد من النقاط الكاشفة والتي تسقط أي وهم، حتى إنه لم يعد لمخدوع أن يستمر في انخداعه، وذلك أن الرئيس الأمريكي وكبار أقطاب حكومته قد عبروا عن ذلك بأن على الفلسطينيين ألا يفكروا في عودة اللاجئين، وأن حدود ١٩٦٧ ليست مقدسة، وأنه يمكن لإسرائيل الاحتفاظ بمناطق في الضفة الغربية، وأن حدود إسرائيل يجب ترسيمها وفقاً للحقائق السكانية الجديدة التي قرئت منذ عام ١٩٦٧. وأن إسرائيل دولة يهودية، وقد وصف« إيهود أولمرت» نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي وصف الموقف الأمريكي بأنه يمثل انتصاراً رائعاً لسياسة شارون، وفي المقابل فإن عدداً كبيراً من الفلسطينيين، سواء من حماس أو الجهاد أو حتى أوساط السلطة الفلسطينية، اعتبروا ذلك بمثابة رصاصة الرحمة على خارطة الطريق، وإذا كان ذلك مفهوماً من جانبي حماس والجهاد فإن وصول السلطة الفلسطينية إلى تلك القناعة، يرتب بالضرورة التخندق مع المقاومة، وانهيار وهم الحصول على شيء عن طريق أمريكا، بل يرتب – لو كان هناك كرامة وعقل – ضرورة فهم أن مواجهة المشروع الصهيوني الأمريكي تقتضي المقاومة، والمقاومة فقط في مواجهة إسرائيل وأمريكا معاً، وبلا تفرقة بينهما، فالمعركة في فلسطين هي ذاتها في العراق ، وهي ذاتها في أفغانستان!!.

***

الغريزة الاستعمارية بحكم طبيعتها غبية واستفزازية – وهذا من رحمة الله بنا إذا كنا حقا شعوبا حية، وحتى لو سقطت الحكومات في صمت الخيانة أو الغباء – فإن ذلك لن يقدم ولن يؤخر؛ لأن المعركة شعوب في النهاية، وإذا كانت الغريزة الاستعمارية محملة أيضاً بوجدان صليبي استكباري متغطرس وأحمق، فإن المسألة أفضل كثيراً، لأننا نؤمن بأن أمتنا لا تزال حية. وأن جماهير الأمة قادرة بالمقاومة على

غرار المقاومة العراقية والفلسطينية على تعطيل المشروع الأمريكي الصهيوني، ما دامت الأقنعة قد سقطت، وباتت الحقائق واضحة، ولعل نهاية الوهم هو بداية النصر.

الممارسات الأمريكية في العراق، مثل الممارسات الصهيونية في فلسطين، الممارسات السياسية والعسكرية والاقتصادية على حد سواء، كلها تقود إلى سيادة ثقافة المقاومة، فالسياسات الأمريكية والصهيونية تسقط ورقة التوت عن المتعاونين مع أمريكا والمراهنين عليها، وبديهي أن انهيار الوضع الرسمي العربي أو شلله سيفسح المجال أمام حركات المقاومة لامتلاك زمام المبادرة الشعبية، وهو ما يعترف به مفكرو العدو أنفسهم، فالمفكر والقيادي في حزب العمل الإسرائيلي« حاييم رامون» يرى أن استمرار الحالة العربية الرسمية الراهنة أفضل كثيراً من تغييرها وظهور حركات للمقاومة على الغرار العراقي والفلسطيني معادية لأمريكا وإسرائيل، وهو نفس رأي يعكوف بيربي الرئيس السابق للمخابرات الإسرائيلية« الموساد» .

المواقف والسياسات الأمريكية الإسرائيلية في الحقيقة تصفي الوجود الفكري، ومن ثم العرقي للتيارات التلفيقية أو المرنة، وتفتح الطريق واسعا وبلا حدود أمام تيار المقاومة خاصة الإسلامية منها، ولا شك أن اكتساب الشعوب لعنصري إسلامية المرجعية، والمقاومة المسلحة الشعبية للمشروع الأمريكي الصهيوني، وهما الشرطان الصحيحان لبداية النصر، وغياب أي من العنصرين« الإسلامية – المقاومة الشعبية المسلحة» يمكن أن يجعل النصر مستحيلاً والصمود مشكوكا فيه.

وهكذا فقد انتهى الوهم، وبدأ طريق النصر،« الله أكبر والحمد الله» .

■ ■ ■

لماذا تفشل مشروعات الإصلاح الخارجية والداخلية أيضا

منذ أن طرح الرئيس الأمريكي جورج بوش ما أسماه الشرق الأوسط الكبير، والذي من المفترض حتى أن تتبناه مجموعة الدول الثماني الكبار في العالم في مؤتمرها القادم، منذ ذلك الحين تبارت حكومات وجماعات ورموز ثقافية وسياسية في طرح تصورات، وعقد مؤتمرات وإصدار توجيهات حول مشروعات للإصلاح، ولكن الحقيقة أن كل هذه المبادرات محكوم عليها بالفشل؛ لأسباب كثيرة واقعة في بنية هذه الحكومات، والجماعات الثقافية والسياسية، ولأسباب تتصل بإغفال العنصر الرئيسي للإصلاح والنهضة، وهو العنصر نفسه الذي فشلت بسبب غيابه كل مشروعات النهضة العربية والإسلامية التي شهدتها تلك البلدان في غضون القرنين المنصرمين.

بداية فإن مشروعات الإصلاح القادمة من الخارج هي بالضرورة فاشلة؛ لأنها تفتقد للمصداقية وتتسم بالنفاق، وأهدافها لا علاقة لها في الحقيقة بموضوع الإصلاح أصلا، بل نكاد نقول: إن الغرب وأمريكا لا يريدون لها الإصلاح والديمقراطية والنهضة، أو أي شيء إيجابي أصلاً، لا على الأساس الإسلامي ولا حتى على الأساس العلماني، ولا علي أي أساس، المطلوب فقط: هو إعادة هيكلة مجتمعاتنا بما يضمن الخضوع والانصياع الكامل للمشروع الغربي الأمريكي والصهيوني، لا أكثر ولا أقل، ونلاحظ في هذا الصدد أن مشروع الشرق الأوسط الكبير الذي تم طرحه مؤخراً لم يكن مشروعاً أو مبادرة بل كان نوعاً من الحكم أو عقد الإذعان، فهو لم يناقش الحكومات المعينة، ولم يهتم بأخذ رأيها، بل وضع

اشروع هكذا، وعليهم التنفيذ فضلاً عن أن أي مشروع للإصلاح ما لم يستند إلى إدارة شعبية حقيقية فلن ينجح، وبديهي أن الممارسات الأمريكية والغربية تجاه شعوبنا تاريخياً وعقائدياً ووجدانياً، كلها تقود إلى نفرة الشعوب من أي شيء يأتي من هناك، أو على الأقل الشك فيه والارتياب بمضمونه وأهدافه، ويكفي أن مشروع الشرق الأوسط الكبير اهتم بإدخال إسرائيل قسراً في المنظومة العربية الإسلامية، وهذا مستحيل حتى ولو استند إلى قوة هائلة، لأنه ضد حقائق التاريخ والجغرافيا والدين والوجدان، وهكذا فإن مثل هذه المشروعات تولد ميتة، وأعتقد أن الذين جاءوا بها يعرفون هذا ، ولا يريدون إلا نوعاً من الضغط على الحكومات بها؛ للمزيد من الانصياع والإذعان والانبطاح ووضع الحكومات في حالة رد فعل.

من جانب آخر ، فإن الضجة الهائلة والتحليلات المستمرة في الصحف والفضائيات، والجلسة الثقافية والسياسية، والاهتمام المبالغ فيه من الحكومة والمثقفين بالموضوع، يعكس قدراً هائلاً من الخلل وعدم الثقة بالنفس، فالإصلاح واجب شرعي في كل زمان ومكان، ولن يكون التفكير في الإصلاح مجدياً إذا تم بناء على ضغط خارجي، ومجرد الرقص على أنغام الخارج هو في حد ذاته خلل كبير، وأحد أسباب الفشل، نعم لقد تأخرنا كثيراً في الإصلاح، نعم نحن في حالة مزرية وهذه جريمة ارتكبتها الحكومات والقوى السياسية والجماعات الثقافية على حد سواء، فالحكومات أدمنت الاستبداد والفساد، وهذه جريمة تستحق عليها المحاسبة، والقوى السياسية لم تمتلك الشجاعة الكافية ولا الرؤية الصحيحة لمواجهة هذا التحدي، لا نستثني من ذلك أحدا، هذه القوى السياسية مهما كانت مستبدة أو حتى تعرضت لقهر هائل هو قهر غير مبرر، وهو مجرم ويستحق الإدانة ،لكن ذلك لا يعفيها من المسئولية، ربما يقلل مسئوليتها ولكن لا يعفيها من

المسئولية، والجماعات الثقافية ارتضت في مجملها أن تكون بوقاً للحاكم، أو ترديداً ورجوعاً لصدى الخارج، وبحثت عن المنافع والمناصب والمؤتمرات بالتقرب من المؤسسات الحاكمة، أو عن الشهرة والجوائز بالتقرب إلى المؤسسات الغربية، حتى لو كان الثمن مثلا سب الدين، أو التخلي عن الثوابت، بالطبع لكل ظاهرة استثناءاتها، ولكنها استثناءات تؤكد القاعدة ولا تلغيها.

إذا تابعنا ردود الأفعال الحكومية تجاه مبادرة الشرق الأوسط الكبير، نجد أن الحكومات أصيبت فجأة بحمى الإصلاح والحديث عنه ، والقول بأنها كانت تؤمن به وتعدله وتجهز أدواته، ولكنها تحتاج إلى وقت وهو كذب صريح﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] ثم عادت تلك الحكومات تتحدث عن الخصوصية، وهو حق أرادوا به باطل؛ لأن الخصوصية لا تعني الظلم والفساد والتعذيب في السجون، وانتهاك حقوق الإنسان، ثم تلوذ الحكومات بمجموعة من المثقفين لتتحدث عن الإصلاح وتضع أجندات بهدف امتصاص الضغط الخارجي ليس إلا، وانبرت جماعات المثقفين ، كل يدلي بدلوه ، وكان الإصلاح والقضاء على الفساد وتحقيق الحريات، واحترام حقوق الإنسان أو حتى تداول السلطة وتغيير الدساتير، مسألة صعبة وهي ليست صعبة بالطبع، وهي خطوة ضرورية طبعاً، ولكنها لن تحقق الإصلاح هكذا فجأة وبعصا سحرية، وفي هذا الصدد يمكن أن نرصد مؤتمر المثقفين في مكتبة الإسكندرية، الذي تم طبعاً برعاية حكومية ، سواء اعترف بذلك من اعترف أو أنكر من أنكر، ووصل المؤتمر إلى عدد من التوصيات حول الدعوة إلى تداول السلطة، وحرية تكوين الأحزاب السياسية، وإلى تحرير الصحافة والإعلام، والوقف التام لاعتقال الناس في الدول العربية بسبب آرائهم، إصلاح المؤسسات

واهياكل السياسية والإدارية، الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية فصلاً واضحاً صريحاً، أو غيرها من التوجيهات التي كان من الممكن لطالب حقوق مثلاً أن يدلي بها بسهولة، ولو كانت المسألة ليست مجرد امتصاص الضغط الأجنبي لقال هؤلاء المثقفون: إنهم في حالة اعتصام مستمر، وإضراب عن الطعام مثلا حتى يتم الإفراج عن المعتقلين السياسيين في مصر، أو إلغاء قانون الطوارئ مثلاً وهكذا فإن التصرف كرد فعل للضغط الأجنبي، وعدم الندم الثقافي على ما فرطنا فيه في حق الوطن طويلاً، وافتقادنا لدور المثقف كضمير للمجتمع ورائد للتغيير، والتنبيه للمخاطر «كزرقاء اليمامة» لن يؤدي بالطبع إلى نجاح تلك الخلطة غير السرية، والملاحظة الجديرة بالاهتمام هي: أن مبادرة جماعة المثقفين بالإسكندرية لم تتطرق إلي موضوع الاحتلال الأمريكي للعراق، والممارسات الإسرائيلية بخصوص الفلسطينيين أو الرفض الصريح لقبول إسرائيل في منظومة الشرق الأوسط الجديد، وهكذا فإن هناك شبهات واضحة حول الهدف الحقيقي من تلك المبادرات، الاهداف الشخصية، والأهداف ذات الصلة بالحكومة، والأهداف ذات الصلة بإرضاء الأمريكان، وتقديم البعض أنفسهم لهم كبديل، وكل ذلك يعرقل الإصلاح ويفقده مصداقيته.

بقي أن نقول: إن كل مبادرات الإصلاح سواء من الخارج أو الداخل فشلت، وستفشل لعدم إدراكها أن المنوط بالإصلاح هم الناس، الأمة، الجماهير، وأن هؤلاء ليسوا قطعاً من الحجر، بل لهم تركيبهم الوجداني والعقائدي، وجزء من هذا التركيب الحضاري والوجداني أننا أمة لن تنهض ولن تصلح إلا بالمقاومة﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وأننا نخلط - على مستوى الاقتصاد والسياسة، والحرية والاجتماع - كل شيء بترك المقاومة« ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا» وأن

الطريق الصحيح للإصلاح يبدأ بمقاومة المشروع الأمريكي الصهيوني في المنطقة، وبدون ذلك فإنه لن يكون إلا قبض الريح وحصاد الهشيم، وبناء على غير أساس، مهما كانت المطالب والمبادرات والمؤتمرات والتوصيات براقة ولامعة، وحتى لو خلصت نوايا الحكومات والمثقفين والجماعات السياسية، فبغير المقاومة، لا إصلاح، لا تقدم، لا نهضة.

■ ■ ■

obeikan.com

مستقبل الاحتلال الأمريكي للعراق

في تحليل لا يخلو من الدلالة توصل الخبير العسكري الإسرائيلي« زئيف شيف» إلى أن الجيش الأمريكي قد مني بالهزيمة في العراق على يد المقاومة العراقية، وأن آثار تلك الهزيمة سوف تكون بعيدة المدى ، وستؤثر على إسرائيل أيضاً. وقال المحلل العسكري الإسرائيلي:« إن سيطرة الجيش الأمريكي على المدن الكبيرة قد أصبحت أضعف مما كانت عليه منذ عام، وأن الوحدات العسكرية العراقية التي شكّلتها أمريكا في العراق قد تفككت وانضم عدد من أفرادها إلى المقاومة، وأن التنقل بالطرق بين المدن العراقية بات أقل أماناً، وأن الاتصالات اللاسلكية بين قوات الجيش الأمريكي، ومختلف المراكز تتعطل باستمرار وإذا ما تقوقع الأمريكيون في معسكرات بعد قيام الإدارة العراقية ، فإن الأراضي الواقعة بين المدن والمعسكرات سوف تكون في أيدي الثوار، وأن مثل هذا التدهور يذكرنا بوضع الفرنسيين في مرحلة ما في الهند الصينية، وأنه إذا فقد الأمريكيون تأييد الغالبية الشيعية فإن حربهم في العراق سوف تصبح مشكلة المشاكل، وأن الإدارة الأمريكية يبدو عليها التخبط الاستراتيجي، وبعد لجوء واشنطن للأمم المتحدة لكي تساعدها في الخروج من مأزقها بالعراق لم يعد واضحاً ما الذي ينبغي أن يعتبر كنصر أمريكي، ولا يقل في ذلك أهمية تقييم وتقدير الدلالات الاستراتيجية في حالة ما إذا سُجِّلَ إخفاق ذريع للأمريكيين بالعراق، إنها ستكون دلالات كونية بعيدة المدى سوف تؤثر على إسرائيل أيضاً».

الهزيمة الأمريكية في العراق أو الفشل الأمريكي الذريع في العراق بات حقيقة معروفة يعترف بها كبار القادة والمحللين في أمريكا ذاتها وفي إسرائيل« الحليف

الاستراتيجي». يعترف بها البعض مباشرة خارج الإدارة الأمريكية. ويتحدث بها داخل الإدارة الأمريكية كبار رموزها ولكن بطريقة غير مباشرة، فالرئيس الأمريكي« جورج بوش» لم يعد يتحدث عن انتصار أمريكي بل عن تبرير استمرار الجيش الأمريكي في المستنقع العراقي رغم الفشل قائلاً:

« إن الجيش الأمريكي صامد في العراق، ولن يتركها للإرهابيين ولن يفر أمام الأشرار»، وهو بهذه الطريقة يخاطب طرفين، الطرف الأول هو الجمهور الأمريكي على أساس أن الخسائر الكبيرة في العراق هي ثمن لعدم انتصار الإرهابيين ، وبالتالي، وتجنيب أمريكا مخاطر كبيرة في الخارج والداخل ؛ أي أن الجيش الأمريكي يخوض المعركة ضد الإرهاب خارج الأراضي الأمريكية بدلاً من خوضها داخل أمريكا، وبالتالي فعلى الجمهور الأمريكي تحمل الخسائر، وينتظر النعوش العائدة، والطرف الثاني : هو العملاء في العراق حتى لا ينهاروا فجأة عند إحساسهم باقتراب الانسحاب الأمريكي من العراق وتركهم في العراء أمام الشعب العراقي الثائر عليهم؛ ليواجهوا عقوبة الخيانة، وهو إحساس أصبح قوياً لدى الأطراف المتعاونة مع أمريكا في العراق.

أمريكا تحاول التخلص من الفشل بأكثر من طريقة، وكل هذه الطرق فشلت أو محكوم عليها بالفشل، فليس هناك تغير نوعي مثلاً إذا ما كان من يحكم العراق لحساب أمريكا هو مجلس الحكم، أو وزارة معينة من الأمم المتحدة، أو حتى حكومة منتخبة، فإذا انسحبت القوات الأمريكية إلى قواعد داخل المدن، فأياً كان الوضع السياسي العراقي فإن الثوار سيسيطرون على المدن والصرق، ويصبح مأزق الأمريكان في قواعدهم أسوأ، وإذا استمرت القوات الأمريكية داخل المدن فإن شيئاً لن يتغير، وسواء كانت سلطات الاحتلال تدار من المنطقة الخضراء أو من

سفارة ترفع العلم الأمريكي فإن شيئاً لن يتغير، ولا تنطلي هذه اللعبة على المقاومة.

والمقاومة بدورها تزداد قوة مع التخبط الأمريكي الاستراتيجي، ومع كل محاولات التجريب من مجلس انتقالي إلى حكومة مدنية ثم حكومة منتخبة، فالأوضاع الأمنية والاقتصادية تتدهور، وهذا يؤثر على كل الشعب العراقي، سنة وشيعة، وغيرهما وذلك كله يصب لصالح المقاومة، والتململ داخل الشيعة وظهور قوى شابة مثل الصدريين« نسبة إلى مقتدى الصدر» وأيًّا كانت درجة ترددها فإن سقوط الضحايا من الشيعة مع الأزمة الاقتصادية والسياسية، سيدفع القطاع الأكبر منهم للخروج على قيادات الحوزة الصامتة، باتجاه المقاومة، وهو أمر خطير جداً بالنسبة للأمريكان، والحديث عن حقوق الإنسان أو القضاء على استبداد النظام السابق لم يعد حديثاً مجدياً، لا داخلياً ولا خارجياً بعد فضيحة التعذيب الأمريكي للمعتقلين العراقيين في السجون العراقية، خاصة سجن أبو غريب، أما اللجوء إلى الأمم المتحدة، أو محاولة توريط أطراف عربية أو دولية في المستنقع العراقي، فإن الأمر قد فات وانتهى، والجميع يخشى ثمناً باهظاً إذا فعل ذلك على يد المقاومة العراقية الباسلة.

على كل حال فإن مظاهر وأغراض الفشل باتت واضحة، ولعل من أهمها الخلافات والصراعات داخل معسكر الأمريكان أنفسهم« الصدام مع الجلبي مثلاً»، وهو نوع من التعبير عن الضيق الأمريكي بالذين ورطوهم في المستنقع.

ولكن هل ينسحب الأمريكان ؟!...الأمر ليس بهذه السهولة، وإذا كانت كل العناصر التكتيكية تقول: إن الانسحاب الأمريكي من العراق بات محتوماً، فإن هناك عوامل استراتيجية أخرى تعطل صدور هذا القرار من المؤسسة الأمريكية الحاكمة« وهي فوق الحزبين الجمهوري والديمقراطي على حد سواء وأقوى من أي

رئيس أمريكي».

هذه العوامل الاستراتيجية لا تتصل بهيبة أمريكا مثلاً، أو خسارة الحرب ضد الإرهاب، فهذه أمور يمكن احتمالها، ولكنها تتصل بمستقبل إسرائيل، ومن المعروف أن اللوبي الصهيوني قام بدور كبير في جر إدارة الرئيس بوش إلى غزو العراق، وبديهي أن هذا اللوبي لا يريد الانسحاب الأمريكي من العراق؛ لأن ذلك معناه انتشار روح عالية من المقاومة إلى داخل فلسطين والعرب والمسلمين مما يشكل أكبر الخطر على وجود إسرائيل ذاته، وكذلك فإن القوى الحاكمة في الغرب عموماً وفي أمريكا خصوصاً ترى أن الانسحاب من العراق يعني خسارة الغرب كله وليس أمريكا أمام العرب والمسلمين، الأمر الذي لم يحدث منذ مئات السنين، وربما يؤدي إلى بداية صعود المسلمين ونهاية الغرب وفي هذا الصدد فإن رئيس الوزراء البريطاني« توني بلير» قد عبر عن المعني نفسه بقوله:« إن معركتنا في العراق معركة استراتيجية يجب أن ننتصر فيها بأي ثمن»، وقوله:« لو قدر لبريطانيا الانسحاب من العراق فإن المتشددين سيطلبون خروج القوات الأجنبية من أفغانستان ومن ثم الشرق الأوسط كله» وقوله:« إن هزيمة أمريكا في العراق هزيمة للغرب كله»، ثم قول« هنري كيسنجر» أحد حكماء الغرب: تراجع« هل تعرفون معنى الهزيمة في العراق؟!! معناه خسارة الغرب لكل ما حققه في خمسة قرون».

■ ■ ■

تفاعلات الداخل الأمريكي أم قوانا الذاتية

بالطبع فإن المجتمع الأمريكي ليس مجتمعاً مصمتاً، ولكن الحساب السياسي والاستراتيجي الصحيح يكون على أساس محصلة هذا المجتمع واتجاه هذه المحصلة، والمجرى الرئيسي لسياسة ذلك المجتمع في لحظة ما ، وليس البناء على هوامش هذا المجتمع يميناً أو يساراً ، مهما كان حجم هذا الهامش؛ لأننا نواجه في النهاية ممارسات القطاع صاحب القرار، وتقع على رؤوسنا هذه الممارسات حتى ولو كان حجم الانتقاد لها في الداخل الأمريكي عاليا جداً أو عريضاً جداً ... ولا ننسى أننا أمام مجتمع فيه مؤسسات وفيه قوى حاكمة ،هي المجمع الصناعي العسكري، وهذه المؤسسات هي التي تعبر عن ذلك المجمع الصناعي العسكري الحاكم، وبالتالي فالقرارات الاستراتيجية في لحظة ما وحقبة ما سوف تصدر، سواء كان يحكم أمريكا الجمهوريون أم الديمقراطيون ... وهذا بالطبع لا ينفي وجود خلافات وتناقضات – ثانوية – بين الجمهوريين والديمقراطيين، أو بين قوى المجتمع الأمريكي، ولا ينفي إمكانية الاستفادة منها ، وبالتالي فمن الصحيح والصحي رصد تلك التناقضات وفهمها شريطة أن ندرك أولاً وأخيراً أنها تناقضات ثانوية.

الحرب على العراق، ومفاهيم الإمبراطورية الأمريكية، واليمين المسيحي الأصولي، وجورج بوش وإداراته، والدعم غير المحدود لإسرائيل ليست اختراعاً من الجمهوريين، فربما يكون هناك خلاف حول الطريقة والتكتيك، ولكن ليس على الاستراتيجية والأهداف النهائية، بل ربما كان الديمقراطيون أشد حماساً لإسرائيل من الجمهوريين، ربما كانوا متحمسين لإسرائيل ووجودها واستمرارها مع إدراك

أن مصلحة إسرائيل وأمريكا تقتضي عدم مسايرة السياسات الشارونية، ليس كراهية في شارون أو حبا في العرب، ولكن لأن تلك السياسة سوف تستفز المجتمعات العربية والإسلامية، فيكون رد فعلها على المستوى الاستراتيجي والمدى البعيد أخطر من رد فعلها على سياسات أقل حِدَّة وأكثر جدوى، أي إن الفرق يكمن بين أسلوب الثعالب وأسلوب الذئاب ليس إلا ... والأمر نفسه يتضمن ويشمل السياسات الأمريكية الأخرى المتصلة بالوجود في المنطقة، وطريقة إدارتها، وفي كل الأحوال فإن تفعيل هذا الأسلوب أو ذاك أولاً وأخيراً بحالة المقاومة وقدراتها ومدى تعمقها في الواقع العربي، فالديمقراطيون مثلاً يهاجمون سياسة الرئيس بوش وإدارته في العراق، فالسيناتور« جون كيري الزعيم الديمقراطي» طالب بمحاسبة الرئيس الأمريكي« جورج بوش» ونائبه« ديك تشيني» على تضليل الرأي العام لادعائهما امتلاك العراق أسلحة دمار شامل، وقال كيري لشبكة سي . بي . إس التليفزيونية الأمريكية: إنه لا بد من تشكيل لجان استماع تابعة للكونجرس لمعرفة الحقيقة كاملة، وأنه لا يعتقد أن السبب في ذلك ضعف المعلومات المخابراتية، وشبه كيري حرب العراق بالحرب التي خاضتها أمريكا في فيتنام وقال: إن الشباب يموت للمبررات الخطأ وأن بوش سارع بالدخول في حرب العراق دون خطة للفوز!!.

الكلام نفسه أو قريب منه يردده باقي الديمقراطيون وقطاعات أخرى من الشعب الأمريكي والمثقفين الأمريكيين، فالجنرال ديسلي كلارك مثلاً وهو أحد زعماء الديمقراطيين قال لشبكة« إن. بي. سي»: إن مسألة العراق تتخطى دور المخابرات الأمريكية، وأنه يعتقد أن الإدارة الحالية ضغطت على أجهزة المخابرات؛ لتصل إلى النتائج التي تحتاج إليها، أما« جوزيف ليبرمان» المرشح للرئاسة الأمريكية

عام ٢٠٠٠ ـ والذي خسر أمام جورج بوش بسبب التلاعب المعروف في حساب الأصوات وفقاً للائحة الأمريكية وطريقة حساب الأصوات، المجمع الانتخابي ـ فقد ألقى باللوم على المخابرات الأمريكية ... الانتقاد هنا لا يصل إلى درجة رفض الحرب على العراق أصلا، ولكن على أنه لم تكن هناك خطة للفوز أو أن المبررات كانت ملفقة، وهذا كله أيضاً لم يكن ليحدث أو يحقق أي تفاعل لدى هؤلاء لولا الخسائر الباهظة التي تخسرها القوات الأمريكية في العراق بسبب المقاومة العراقية الباسلة، أي أن المسألة ليست خلافاً على المبدأ، ولكن خوفاً من الوصول إلى كارثة بسبب تلك الخسائر وضياع هيبة الولايات المتحدة، وهكذا ، فالعامل الأهم هنا هو نوانا الذاتية، والمقاومة العراقية تحديداً، ونلاحظ أن هؤلاء الذين ينتقدون إدارة بوش بسبب عدم قدرته على القضاء على المقاومة، ويصلون في نقدهم إلى حد لمطالبة بمحاكمة بوش ونائبه هم أنفسهم الأكثر حماساً للمشروع الصهيوني، وبعضهم صهاينة حتى النخاع« جوزيف ليبرمان»، وأن ضميرهم لم يتيقظ للمجازر لوحشية التي يتعرض لها الفلسطينيون!!.

وبالطبع ، هناك قوى وشخصيات ومفكرون وفنانون ومثقفون يعترضون على السياسة الأمريكية بشكل مبدئي، أمثال ناعوم تشوسكي ، ولكن هؤلاء لا تأثير لهم على القرار الأمريكي، وهم على هامش الهامش بالنسبة لمؤسسة الحكم في أمريكا.

أيا كان من يحكم أمريكا ؛ فإن الاستراتيجية واحدة، والتكتيك مختلف، ويجب أن ندرك هذا ونفهمه، وبالإضافة إلى ذلك فإن موضوع العراق وفلسطين ليس هو فقط الذي يحسم المعركة الانتخابية، فهناك عوامل شتى ومختلفة من: الإعلام والمال وقضايا أمريكا الداخلية فضلا عن السياسة الخارجية ، كل ذلك يؤثر تأثيراً كبيراً في سياسة أمريكا بالدول العربية، وكل هذه العوامل تحت سيطرة المجمع الصناعي

العسكري الحاكم في واشنطن، ويجب أن ندرك أيضاً أن« جون كيري» نفسه كان قد أيد إعطاء بوش تفويضاً بالحرب في العراق عندما عرض الموضوع على الكونجرس، وأنه تراجع عن ذلك ليس من حيث المبدأ، ولكن لزيادة خسارة القوات الأمريكية في العراق بسبب المقاومة العراقية المتصاعدة، أما الزعيم الديمقراطي هو رد دين والذي هو الأعلى صوتاً والأكثر معارضة للتورط الأمريكي في العراق، فإنه تعرض لهجوم شديد من الميديا الأمريكية التي اتهمته بعدم الوطنية، وقد أثر ذلك على شعبيته مما يدل على أن معارضة الحرب على العراق والتورط فيها من حيث المبدأ لا يزال غير مقبول شعبياً، أو أن دوائر النفوذ المؤثرة في أمريكا قادرة على إضعاف من تريد، وقتما تريد بسبب امتلاكها للمال والإعلام، وهكذا ، فإن المراهنة على تغير الموقف الأمريكي من العدوان بسبب الإطاحة بجورج بوش مثلاً أو وصول الديمقراطيين إلى السلطة هي نوع من الوهم اللذيذ، فالمسألة أولاً وأخيراً مرتبطة بالمقاومة وهل تستطيع الولايات المتحدة تحمل الخسائر أم لا. ولا يفوتنا في هذا الصدد أن معظم قادة الحزب الديمقراطي والذين دخلوا سباق الانتخابات الصهيونية كانوا أولاً ، ولا يزالون يؤيدون الحرب على العراق واحتلالها مثل جوزيف ليبرمان، والسيناتور إدفاروز، وغيرهما!!.

***

حوار الأفكار والآراء في المجتمع الأمريكي الذي قلنا إنه غير مصمت هو أمر طبيعي وبديهي، ولكن يجب ألا يقودنا هذا إلى المراهنة على الظواهر الخطأ ... فالحساب يكون على المحصلة واتجاه تلك المحصلة وعلي المجرى الرئيسي وعلى توجهات المؤسسة الحاكمة الحقيقية ... ولا شك أن السياسة الأمريكية الحالية هي محصلة ونتيجة تطور الآلة الرأسمالية، والعولمة وانهيار الاتحاد السوفيتي السابق،

وهي جزء من البنية الداخلية للمجتمع الأمريكي الذي قام أصلاً على الإبادة والعدوان واسترقاق السود ونهب الآخرين، وبالتالي فإن وصول إدارة بوش إلى السلطة نتيجة طبيعية لهذا التطور، وليس العكس.

وإذا كان من المفيد رصد وفهم مثل تلك التفاعلات مع إدراك محدودية تأثيرها وطبيعة ذلك التأثير، فإننا نرصد صدور عدد من الكتب التي تناقض سياسة الرئيس بوش، وتقدم انتقادات لاذعة له، ومن هذه الكتب كتاب« أكذوبة بوش الابن» للمؤلف الأمريكي دافيد كورن، وكتاب« أكاذيب وكذابون» للصحفي مولي إيفانز وهذان الكتابان يؤكدان أن البيت الأبيض عمد إلى تسييس أحداث ١١ سبتمبر لتبرير سياسات معتمدة سلفاً مثل الحرب على الإرهاب، وهناك أيضاً كتاب «ثمن الولاء» لوزير الخزانة الأمريكي السابق« بول أونيل» ، والذي يصور فيه المؤلف الذي اطلع عن قرب بحكم عمله كوزير للخزانة في إدارة بوش على أسرار السياسة الأمريكية في عهد ذلك الرئيس وإدارته وعرف كيف تدار المسائل الاستراتيجية وقرارات الحرب وغيرها ، وقد اتهم بول أونيل الرئيس بوش الصغير بأنه سلبي وسطحي، ولا دور له إلا توقيع القرارات، وأن هذه القرارات يتخذها المحافظون المتشددون من أمثال ديك تشيني، وكارل دون، وكشف«بول أونيل»: أن خطة ضرب العراق كانت خطة معدة سلفاً ربما حتى قبل فوز جورج بوش الابن بانتخابات عام ٢٠٠٠، لأن الأشهر الثلاثة الأولى من حكم بوش الابن كانت كلها موجهة لدراسة آليات تنفيذ تلك الخطة، والبحث عن ذرائع لتبرير العملية أمام الرأي العام، وأن الجميع من مستشارة الأمن القومي حتى وزير الدفاع كان يعمل لتنفيذ تلك الخطة، وليس السؤال عن جدواها أو عدم جدواها مثلاً، وقد تضمن الكتاب عددا من الوثائق التي أزعجت البيت الأبيض والتي اعتبرها نوعا من

إفشاء أسرار الحكم الذي كان أونيل جزء منه لمدة ٣٣ شهراً كوزير للخزانة،والكتاب يشتمل على وثائق تثبت أن قرار الحرب اتخذ قبل أحداث ١١ سبتمبر، بل إن تصورات ما بعد الحرب كان يتم مناقشتها، وكأن قرار الحرب كان حتميا لا رجعة فيه، وإحدى هذه الوثائق بعنوان« في عراق بعد صدام» والأخرى بعنوان« الساعون الأجانب لعقود حقوق النفط العراقية»، ويعترف وزير الخزانة مؤلف الكتاب المذكور« ثمن الولاء»: بأن فكرة الحرب الاستباقية فكرة غير أخلاقية وإنها أساءت إلى سمعة أمريكا، وجعلت منها دولة مارقة منفردة بقرارها لا تصغي لصديق أو حليف، فأصبحت بذلك في عزلة عن العالم، كما يعترف الرجل بأن الاجتماعات التي شارك فيها ، والتي كانت مخصصة لموضوع امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، أعطته إحساسا بعدم جدية الأدلة المقدمة على ذلك وأن أحداً لم يكن يهتم بمدى جدية تلك الأدلة، بل انصب الاهتمام على البحث عن أساليب الإطاحة بصدام ووسائل الغزو العسكري واحتلال العراق.

***

على الجانب الآخر لصراع الأفكار، فإن كتاب« نهاية الشر» للمؤلف ريتشارد بيرل هو الأكثر تعبيراً عن أمريكا وعن المؤسسة الحاكمة فيها، وعن توجهاتها الرئيسية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي والانفراد بالهيمنة في العالم وانتصار الرأسمالية وتطورها في اتجاه العولمة وكذا فإن شخصية المؤلف ذاتها تؤكد هذا المعنى، فريتشارد بيرل هو فيلسوف اليمين الأمريكي المحافظ – وبالتالي فهو فيلسوف ومنظر المؤسسة الأمريكية الحاكمة في هذه الحقبة، وهو الأب الروحي للعصابة التي تحكم البيت الأبيض« تشيني ورامسفيلد وكونداليزا رايس وولفوويتز ... إلخ»، وكان ريتشارد بيرل هو رئيس مجلس سياسات الدفاع في البنتاجون، وبعد فضائح مالية

أصبح عضواً في ذلك المجلس، ولكن لا يزال هو المؤثر الأكبر عليه، حيث الرئيس الحديد والأعضاء هم تلاميذه، وهو مهندس الحرب على العراق بلا منازع، وأول من وضع خطة لذلك الأمر حتى قبل أن يتولى بوش الرئاسة، وآراء بيرل يرددها كبار المسئولين في البيت الأبيض، ويرددها عدد كبير من الباحثين والمفكرين والجنرالات في أمريكا، أي أن الرجل هو التعبير الأساسي عن السياسة الأمريكية في تلك الحقبة، وهو أي ريتشارد بيرل كان مستشارا لليكود في إسرائيل، وقد طرح الرجل في هذا الكتاب ـ الخطير والمهم والذي ينبغي ترجمته بسرعة وقراءة ما فيه ومعرفة ما يخطط لنا بالتالي في أمريكا في تلك الحقبة ـ آراء غاية في الخطورة فهو يرى أن الإسلام هو مصدر الشر، وأن البلاد العربية والإسلامية هي معمل تفريخ الإرهاب، ويدعو إلى مهاجمة كل من إيران وسوريا سريعاً، وأنه يجب إلغاء معاهدة أوسلو وحل الموضوع الفلسطيني على طريقة شارون ومن جانب واحد، وأن الأمم المتحدة لا قيمة لها، ولا تعني شيئاً وأنه ينبغي تأديب أوروبا لتخلفها عن تأييد ودعم الضربة العسكرية الأمريكية للعراق، وأن فرنسا دولة عدوة، وأنه يجب اتباع مجموعة من الإجراءات التأديبية ضد فرنسا، وأن زمن الحرب الباردة قد انتهى، وأن على فرنسا أن تدرك ذلك، وتغير خطابها السياسي، وأن أمريكا هي القوة الوحيدة في العالم الآن ولا يوجد منافس أو مناوئ لها، وأن احتلال العراق ليس إلا مقدمة تتبعها سوريا ثم السعودية كهدف استراتيجي ومن ثم تكون مصر هي الجائزة وأن فلسطين هي إسرائيل والأردن هي فلسطين والعراق هو المملكة الهاشمية، وأن من حق الولايات المتحدة ضرب أي دولة في العالم تعجز عن القيام بدورها في ملاحقة الإرهاب؛ لأن هذا العجز يؤدي إلى خطر على أمريكا في النهاية، ويرى بيرل ضرورة تخويف روسيا حتى تقر بالقيادة لأمريكا وحدها، ويطالب الرجل بمضاعفة ميزانية وزارة الدفاع والمخابرات وإعادة ترتيبها بما يضمن الكفاءة في شن الحروب الوقائية

أو الاستبيانية.

وقد يبدو للوهلة الأولى أن الرجل مصاب بجنون العظمة أو أن ما يقوله « هلوسات الغطرسة» كما وصفه البعض،أو أطلق وصف أمير الظلام عليه كما أصبح مشهوراً عنه، كل هذا قد يكون صحيحا أو خاطئا أو صحيحا جزئياً أو خاطئا جزئياً، ولكن المؤكد أنه حتى لو كان الرجل مجنونا، أو أميراً للظلام أو مصابا بهلوسات الغطرسة، فإن ما يقوله هو – ويا للأسف – السياسة الحقيقية أو القريبة جداً من الحقيقة للمؤسسة الأمريكية الحاكمة، وللمجتمع الصناعي العسكري الحقيقي المتحكم في أمريكا، فضلاً عن حكام البيت الأبيض وإدارة جورج بوش وصقور وزارة الدفاع، أي أن علينا أن نأخذ ما يطرحه الرجل بجدية مهما كان غريباً وفظاً وشاذاً.

■ ■ ■

الفشل الأمريكي الذريع

بعد كل ما فعلته وأنفقته أمريكا فيما تسميه الحرب على الإرهاب، فإن المحصلة الواضحة والمرئية رأي العين هي الفشل الأمريكي الذريع، فعلت أمريكا – وإسرائيل باعتبارها وكيل أمريكا وذيلها – كل شيء من أجل تحقيق هدفها، استخدمت كل أنواع السلاح والجنود والقنابل الذكية والغبية، غزت دولا واحتلتها(أفغانستان – العراق) ضغطت على دول أخرى وحصلت أو لم تحصل على ما تريده من إجراءات ومعلومات وشخصيات وسياسات، أنفقت مئات المليارات من الدولارات، اشترت أقلاما، وأدباء، أنشأت إذاعات، استخدمت آلة إعلام جبارة، غيرت مناهج التعليم في بعض الدول، بل واعتدت على حماس الحريات الفردية ذاته داخل أمريكا ... فعلت كل شيء.

وأي شيء، والمحصلة هو الفشل الذريع، ذلك لأن الإرهاب ليس مافيا، بل تعبير عن احتجاج شعوب وعقائد وحركات وأمم ضد الهيمنة والغطرسة والاستكبار والنهب، قد يكون التعبير عن ذلك صحيحاً ١٠٠٪ أو خاطئاً، أو بنسب متفاوتة، ولكنه في النهاية تعبير عن وجدان وعقائد ومصالح، وبالتالي فلا يمكن القضاء عليه؛ لأن ظروفه الموضوعية التي أفرزته لا تزال موجودة، وما لم تكف أمريكا وإسرائيل عن القمع والنهب والاحتلال والغطرسة والاستكبار وهذا مستحيل بالنظر إلى طبيعة الأشياء – فإن الإرهاب لن يتوقف حتى لو لم يتم القضاء على كل عناصره ورموزه المعروفة حالياً.

بصرف النظر عن الرأي فيما يقوم به هذا الإرهاب، فإنه لا يزال قوياً وفاعلاً ففي أفغانستان: لا تزال طالبان والقاعدة تنفذان عمليات ضد الوجود الأمريكي، وضد

القوات التابعة للأمم المتحدة، وضد الحكومة العميلة، وعلى حد تعبير أحد المتخصصين في شئون الإرهاب« جوهان جونترانا»- رئيس وحدة أبحاث الإرهاب بمعهد دراسات الأمن والاستراتيجية في سنغافورة ومؤلف أحد الكتب عن تنظيم القاعدة : فإن الولايات المتحدة« قد حققت أكبر فشل عسكري في الحرب على الإرهاب، وأنها لا تزال بحاجة إلى المزيد من الموارد والجنود للاستمرار في تلك الحرب» ناهيك عن نتيجتها؛ لأن النتيجة لن تكون مرهونة بعدد الجنود أو كمية الأموال المنفقة، ولكن بتغيير ظروف موضوعة وهو أمر صعب أو مستحيل كما قلنا من قبل لأسباب موضوعية تتصل بطبيعة التركيب والتوجهات الداخلية في بنية الاستكبار العالمي الأمريكي الصهيوني.

منذ عام ٢٠٠١ مثلاً، وبعد غزو أفغانستان، فإن المقاومة لا تزال موجودة في أفغانستان، وحدثت عمليات منسوبة إلى القاعدة في إفريقيا ضد خندق إسرائيلي، وفي الدار البيضاء بالمغرب، وفي الرياض بالعربية السعودية، ثم في مدينة جاكرتا عاصمة إندونيسيا ، ومن قبل مدينة بالي بإندونيسيا أيضاً، وهناك من ينسب عمليات التفجيرات ضد السفارة الأردنية في بغداد، وضد مقر الأمم المتحدة في بغداد أيضاً لجماعة أنصار – الإسلام المتأثرة بتنظيم القاعدة، وهكذا فإن تنظيم القاعدة لا يزال يعمل رغم كل ما حدث من حرب ومطاردة بل ومساعدات معلوماتية وأمنية من دول مثل مصر والسعودية والمغرب والسودان، بل ومن سوريا وإيران وغيرها.

من جانب آخر فإن إسرائيل – وأمريكا بالتالي – قد فشلتا فشلاً ذريعاً في تحقيق هدفيهما في إثارة حرب أهلية فلسطينية بين الفصائل المجاهدة والسلطة، بل لم تستطع أمريكا أن تقنع أحداً بجدية خارطة الطريق المزعومة مع كل الممارسات الصهيونية والسكوت أو الموافقة الأمريكية، وفشلت إسرائيل أيضاً – وبالتالي

أمريكا في القضاء على المقاومة، أو تحقيق الأمن لنفسها مع الجدار العراقي، والاستحكامات العسكرية الضخمة والاستخباراتية الأضخم، وممارسة القتل والاغتيال ونسف البيوت واعتقال الناشطين، ويبدو كأن المقاومة شجرة مباركة كلما قطعت منها جزءاً نبتت آلاف الأجزاء بسرعة ملائكية أو سحرية مباركة، ولعل استمرار العمليات الاستشهادية هو خير دليل على ذلك. ومن جانب ثالث – فإن المقاومة العراقية تتصاعد وتنحدر يوماً بعد يوم لدرجة أنها أصبحت الأعظم والأشمل، فهي عمليات يومية متنوعة وجريئة ومستمرة ومنتشرة، والنعوش الحاملة للجنود الأمريكيين من قتلى وجرحى تعود يومياً إلى واشنطن مما يهدد الداخل الأمريكي نفسه، ورامسفيلد مثلاً الذي كان يصر على تجنب أي محاولة تدخل دولية في الشأن العراقي ويعبر عن ذلك علنا بقوله: إن من خاض الحرب هو الذي سيقرر ما يحدث في العراق، وهو نفسه الذي راح يستجدي الدول الأخرى الأوروبية والآسيوية بل ودول الاتحاد السوفيتي السابق والكتلة الشرقية السابقة، بل الدول العربية لكي ترسل جنودها للعراق لكي تحل محل جنوده، والرئيس الأمريكي وافق على إشراك الأمم المتحدة، وبعد أن كان يتبجح ويتباهى بالانتصار السريع في العراق راح يدافع عن نفسه وعن استمرار القوات الأمريكية في العراق، ولولا مصالح شركات أمريكية كبرى، ولولا مصالح عدد كبير من رموز الإدارة الأمريكية، ولولا ضيق أفق وصلابة اليمين الأمريكي، ثم الانسحاب من العراق على غرار الانسحاب الأمريكي من لبنان عام ١٩٨٣ بعد مصرع ٢٣٠ أمريكيا على إثر عملية استشهادية ضد قيادة القوات الأمريكية« مشاة البحرية وكذلك الانسحاب من الصومال بعد التنكيل بجثة أحد الجنود الأمريكيين أمام شاشات التليفزيون العالمية، ولكن العراق به بترول، وليس المستنقع في العراق فقط في عدد

الجنود الذين يسقطون كل يوم قتلى وجرحى، ولكن أيضاً في نجاح المقاومة العراقية في ضرب إمدادات النفط بصورة شاملة عن طريق التفجيرات المستمرة والكبيرة والمتنوعة لأنابيب النفط، وهي من الامتداد بحيث يستحيل عملياً حراستها على طول امتدادها – اللهم إلا بتكاليف عالية وباهظة – وهكذا فإن المقاومة العراقية نسفت المردود الاقتصادي والاستراتيجي للاحتلال الأمريكي للعراق، وبالتالي فإن محصلة غزو أمريكا للعراق - بـ ١٦٠ ألف جندي وحوالي ٢٠٠ ألف آخرين في القواعد المساعدة، وعشرات الآلاف من الحلفاء« بريطانيا – أستراليا – بولندا – جورجيا ...إلخ» وتكاليف زادت على ٢٠٠ مليار دولار- هي الفشل الأمريكي الذريع.

ولأن الحكومة الأمريكية تعرف أنها في مستنقع حقيقي، فإنها تحاول الآن استخدام أكثر من وسيلة لتخفيف حدة فشلها في العراق، منها محاولة ربط الموضوع بالأمم المتحدة، وبالتالي إلقاء قدر من المسئولية السياسية والأمنية على عاتق قوات متعددة الجنسيات تابعة للأمم المتحدة، وهو أمر محدود القيمة خاصة بعد ضرب أحد القوات التابعة للأمم المتحدة في العراق بعملية« انتحارية – استشهادية» على فندق القناة في بغداد يوم ١٩/ ٨/ ٢٠٠٣ وقتل وأصيب ما يزيد على مائة شخص بينهم رئيس بعثة الأمم المتحدة في العراق ومنها محاولة استدراج دول أوروبية أو آسيوية أو عربية للقدوم إلى العراق، وهو أمر رفضته ألمانيا وفرنسا لأسباب تتصل بالتناقضات الرأسمالية، ورفضته الدول العربية لأسباب تتصل بالخوف من رد فعل شعوبها أو جيوشها ذاتها على الحكومات، ولم يقبله إلا عدد من الدول الهامشية من أمثال بولندا وجورجيا وهو أمر لا يسمن ولا يغني من جوع، ومنها محاولة إثارة النزاعات العشائرية في العراق ، وهو أمر خطير مثل اللعب

بالنار؛ لأن إثارة النزاعات العشائرية وتقريب عشائر على حساب عشائر أخرى يمكن أن يحول العشائر المستبعدة إلى قاعدة مقاومة هائلة، بل ويمكن أن يؤدي إلى تنافس العشائر في كسب شرف المقاومة، وبالتالي يجعل العشائر المتحالفة أو المتعاونة تتخلص من ذلك سريعاً وتعود إلى خندق المقاومة، والأمر نفسه بالنسبة للعرب على الموضوع الطائفي« شيعة – سنة ـ أكراد» فالواضح أن الأمريكان يحاولون عدم الصدام مع الشيعة واسترضاءهم على حساب السنة في العراق، وإذا نجح ذلك مؤقتاً فإن الأمر سيفلت بالضرورة مع تصاعد الروح الوطنية والإسلامية ومع استمرار نجاح المقاومة لدرجة ستجعل كل من يريد أن يحتفظ بشرفه الوطني أن يلحق بالمقاومة، ولا يفوته قطارها العظيم، مع الأخذ في الاعتبار هنا أن البطالة والأزمة الاقتصادية وأزمة الوقود والخدمات ... إلخ تضرب الشيعة مثل السنة وهي كافية لإثارة رد فعل موال للمقاومة رغم أنف الجميع.

وهكذا فإن كل التكتيكات الأمريكية محكوم عليها بالفشل، وستتصاعد المقاومة العراقية وتتعملق وستدفن إن شاء الله بالذئب الأمريكي في رمال العراق.

ولأن الحاسة الاستعمارية غالبة – الطبع يغلب التطبع – ولأن الحماسة الاستعمارية هي بالضرورة غبية، فإن الأمريكان لن يخرجوا بسهولة من العراق ...ولعلها إرادة الله، أن تكون العراق وفلسطين وأفغانستان ـ والقاعدة وأنصار الإسلام وحزب الله، وحماس والجهاد وكل من لحق بقطار الكرامة والمقاومة ـ أداة لإنهاء الزمن الأمريكي الإسرائيلي الرديء .

■ ■ ■

الشرق الأوسط الكبير

الشرق الأوسط الكبير، الشرق الأوسط الأوسع نطاقاً، هو أحدث صيحة في عالم المبادرات الأمريكية والأوربية لإعادة صياغة المنطقة بما يخدم المصالح الأمريكية، والصهيونية والغربية عموماً، المسألة إذن ليست جديدة تماماً، ولكن فيها ما هو جديد أيضاً، فمثل هذه المشروعات والمبادرات لم تنقطع منذ حرب الكويت عام ١٩٩١، في إطار انفراد أمريكا بالهيمنة على العالم بعد سقوط الاتحاد السوفيتي السابق والمنظومة الاشتراكية، والوجود الفعلي للقوات الأمريكية في المنطقة بعد حرب الكويت عام ١٩٩١ لتكمل مع إسرائيل حلقة الاحتلال والهيمنة. وقد شاهدنا من مثل تلك المبادرات، ما يسمى بالسوق الشرق أوسطية، وهي فكرة أمريكية صهيونية تستهدف إدماج إسرائيل في المنطقة وإخفاء العرب والمسلمين الهوية والثقافة والتميز الحضاري، وبالتالي الانتماء إلى الشرق الأوسط أو عالم المصالح والبيزنس والسلام – وهو وهم طبعاً – ثم ما يسمى بالانتماء إلى البحر المتوسط وهي فكرة أوروبية تحقق أهدافاً قريبة من الأهداف السابقة، أي استبدال الانتماء العربي والإسلامي بالانتماء إلى ثقافة البحر المتوسط، وهذه بالطبع أقل خطراً من الشرق أوسطية، رغم أنها تدمج إسرائيل أيضاً في المنطقة. ولكنها تتعارض نوعًا ما مع المفهوم الأمريكي للمنطقة، ثم بعد ذلك ظهرت مبادرة« كولن باول» للشراكة والسلام والتنمية، وتم رصد اعتمادات وأموال وإنشاء صحف وقنوات فضائية تليفزيونية للتبشير بتلك القيم وغيرها، ثم أخيراً مشروع بوش المسمى بالشرق الأوسط الأوسع نطاقاً وهو يضم حسب تعريف بوش نفسه العالم العربي + إسرائيل + إيران وباكستان وتركيا، أفغانستان، أي نطاق عربي إسلامي يقبل

باندماج إسرائيل فيه، وهو هنا يشبه مشروع الشرق أوسطية المعروف، ثم حديث عن التنمية، وعن الرخاء وأرقام عن تدني الدخول، تدني مستوى المعيشة، تفشي البطالة، الأمية، وكأن السيد الأمريكي قد اكتشف ما هو غير معروف بالنسبة لحالتنا، وبديهي فإن الوعود هنا هي: الرخاء الاقتصادي ، وهو وهم طبعاً، فالحدأة لا تلقي بالكتاكيت، المهم في المسألة أن ذلك كله بشرط دعم اقتصاد السوق أي تسليك مواسير النهب والهيمنة وإعادة هيكلة المجتمعات لا لإنقاذ الهوية والثقافة، ثم حديث عن دعم دور المرأة وتحريرها، وهو حديث ممجوج من كثرة تكراره وحق يراد به باطل، وكذا دعم مؤسسات المجتمع المدني، طبعاً بشرط أن تكون تلك المؤسسات ناشئة في ظل العولمة ووفقاً لمفاهيمها وأجندتها وليست مؤسسات أهلية إسلامية كانت ولا تزال معروفة ومؤثرة، وأخيراً وليس آخراً الحديث التقليدي عن الديمقراطية وحقوق الإنسان ونزاهة الانتخابات ووقف التعذيب والانتهاكات وهو حديث منافق تماماً؛ لأنه يمس وتراً حساساً وصحيحا، ولكنه نوع من الخيار بين الوهم والجحيم، وهم إمكانية تحقيق الحرية عن طريق الاستعمار، وجحيم دعم الحكومة المستبدة نكاية في أمريكا، وينبغي بالطبع أن نكون موقفاً مركباً يرفض الاستعمار والاستبداد في الوقت ذاته.

على كل حال فإن الحديث المنافق عن الديمقراطية وحقوق الإنسان يستدعي قدراً أكبر من المناقشة ووضع النقاط على الحروف، فبداية فإن الذي وضع الديكتاتورية، ووضع التطور الاجتماعي الصحيح في المنطقة هو الاستعمار ذاته، وأمريكا وإسرائيل تحديداً، وجورج بوش نفسه اعترف بأن أمريكا دعمت الاستبداد في المنطقة لمدة ستين عاماً وقد آن الأوان لوقف هذا الخطأ، والجزء الأول من كلام جورج بوش صحيح، وبالتالي ينبغي لإصلاح الخطأ، الاعتذار ودفع

التعويضات للمتضررين، وهم كثر من الذين انتهكت حرياتهم، ومحاكمة المسئولين عن ذلك من أمثال : كيسنجر وكلينتون وبوش الأب وهم لا يزالون أحياء!!.

أما الجزء الثاني من كلام بوش فهو نفاق محض، ذلك أن أمريكا تحديدا لا تطيق ولا تقبل ظهور حكومات شرعية منتخبة ومقبولة شعبياً، ولا تقبل بديمقراطية حقيقية في المنطقة؛ لأن ذلك يوقد مباشرة إلى صعود التيار الإسلامي، وثقافة المقاومة وهما خطر على المشروع الأمريكي الصهيوني قطعاً، ثم إن التاريخ القديم والحديث بل والآتي للولايات المتحدة لا يبشر بذلك، فهي أولاً دولة قامت على إبادة شعب آخر، ثم استرقت السود، ثم مارست طوال تاريخها العدوان على الآخرين، وارتكبت من المذابح ما يكفي لتسويد صفحتها، ثم هي التي أسقطت الديمقراطيات ودعمت المستبدين، وتآمرت ضد زعماء وطنيين ...إلخ ... ثم هي نفسها التي تدعم إسرائيل التي تنتهك كل حقوق الشعب الفلسطيني يومياً، وعلى مدار الساعة وهكذا فإن الحديث عن ديمقراطية أمريكية هو نفاق محض، أضف إلى ذلك أنه على مستوى اللحظة والراهنة، فإن أمريكا قد ثبت كذبها في موضوع الديمقراطية وحقوق الإنسان في كل من أفغانستان والعراق، فلم تحقق في أي من البلدين لا الرخاء ولا الأمان ولا الديمقراطية، بل العكس كن هو الصحيح على طول الخط، فالبطالة زادت، والمعاناة الاقتصادية تفاقمت والأمن والأمان ضاعا تماماً، فضلاً عن فقدان الاستقلال والكرامة. وعلى مستوى الأحداث الجزئية ذات الدلالة، فإن قيام القوات الأمريكية بقتل أسرى قلعة جانجي في أفغانستان، وإصدارها الأوامر بقتل كل أسير ينتمي إلى طالبان والقاعدة، ثم ما حدث ويحدث في معتقل جوانتانامو، وكذا الممارسات القمعية والتميزية والعنصرية ضد العرب والمسلمين في أمريكا كلها تقول : إن فاقد الشيء لا يعطيه وأن حديث أمريكا عن

الديمقراطية هو نفاق محض.

في هذا الصدد فإن أحدا لا يصدق أمريكا، حتى الأمريكيين والأوروبيين بل والمتعاطفين مع النموذج الأمريكي من المثقفين العرب، فالمفكر الأمريكي« فوكوياما» صاحب نظرية« نهاية التاريخ» الذي بشر فيها بسيادة الليبرالية الغربية يرى أن دعوة أمريكا إلى الديمقراطية تفتقر إلى المصداقية، والصحفي البريطاني« روبرت فيسك» يقول الشيء نفسه مع إضافة: أن أمريكا تدعم الطائفية وتمنع الديمقراطية في العراق بل ويقول: إن الغرب نفسه هو الذي منع التطور الديمقراطي في المنطقة، فبريطانيا ، مثلاً ، هي التي منعت بالقوة التطور الديمقراطي في مصر في الثلاثينيات من القرن الماضي، والدكتور عبد المنعم سعيد، وهو مفكر مصري وصحفي بالأهرام ورئيس مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بها، وهو بالمناسبة مع النموذج الأمريكي وضد المقاومة ومع التطبيع ... إلخ اكتشف أخيراً أن الاستثناء الأمريكي بخصوص الديمقراطية قد انتهي، وأن المدينة المضيئة على التل قد أصبحت معتمة!! وأن هناك أيديولوجية بدأت تترعرع في أمريكا ذاتها!!.

الجديد في مبادرة الشرق الأوسط الكبير هو أن الأمريكان قد لجئوا هذه المرة إلى إشراك الأوروبيين في المسألة، وهذا بالطبع جاء تحت ضغط الخوف من المقاومة العراقية التي يمكن أن تتحول إلى حالة عربية إسلامية شاملة فتكون خطراً على المشروع الغربي برمته وليس المشروع الأمريكي فقط، وأمام مثل هذا الخطر فإن أمريكا تتخلى عن غطرستها وتشرك الأوروبيين معها، والأوروبيون يتنازلون عن مصالحهم المتعارضة مع أمريكا لمواجهة هذا الخطر، ويشاركون الأمريكيين في المسألة، ولعل هذا ما يفسر قبول الأوروبيين بالمشاركة في المبادرة، بل وتخلي ألمانيا

عن معارضتها لأمريكا عموماً، وأقوال وزير خارجيتها التي تصب في دعم أمريكا تماماً، ولعل هذا الموقف ليس جديداً لا علي أوروبا ولا على أمريكا، فهناك بالطبع تناقضات مصالح بين هذه الدول وبعضها، ولكنها تناقضات ثانوية في النهاية يتم تسويتها بتقسيم الكعكة، أو زوالها بظهور خطر حقيقي عليها كلها مثل خطر المقاومة، والتاريخ مملوء بنماذج لزوال التناقضات الثانوية، مثل ترحيب فرنسا بالاحتلال الإنجليزي لمصر ١٨٨٢ وذلك لذبح الثورة العرابية؛ لأنها كانت تشكل خطراً على المشروع الاستعماري الأوروبي بأكمله، وقد قال ذلك مباشرة وزير خارجية فرنسا إبانها في إطار تهنئته للإنجليز بالنجاح في هزيمة عرابي، والأمر نفسه حدث في الاتفاق الودي الإنجليزي الفرنسي عام ١٩٠٤ والذي ضربت فيه فرنسا الحركة الوطنية المصرية في ظهرها بعد أن أظهرت لها التأييد قبل ذلك، وهو نفسه ما يفسر الموقف الفرنسي« الضمير الفرنسي المطاط» في الموقف من العراق منذ عام ١٩٩٠ حتى الآن، والموقف الألماني مؤخراً، والموقف الروسي« السوفيتي» عام ١٩٦٧ وغيرها من الأمور التي تبدو غير مفهومة بعض الوقت ما لم يتم وضعها في إطار نظرية التناقضات الثانوية التي تزول أمام التناقض الجوهري، وهو التناقض بين الحضارة الإسلامية ككل والحضارة الغربية ككل!!.

***

بقي أن نقول: إن تلك المبادرات تأتي بطريقة عشوائية فلا الشعوب شاركت في مناقشتها – وهذا طبيعي – ولا حتى الحكومات الصديقة للغرب تم استشارتها – وهذه إهانة لها، وهي مبادرات على طريقة القص واللصق، ومهما كانت النية وراءها فإن الجسم العربي الإسلامي سيرفضها بالضرورة بحكم التكوين الحضاري والثقافي، وبحكم الحساسية التاريخية وبحكم أنها صناعة خارجية.